

روايات

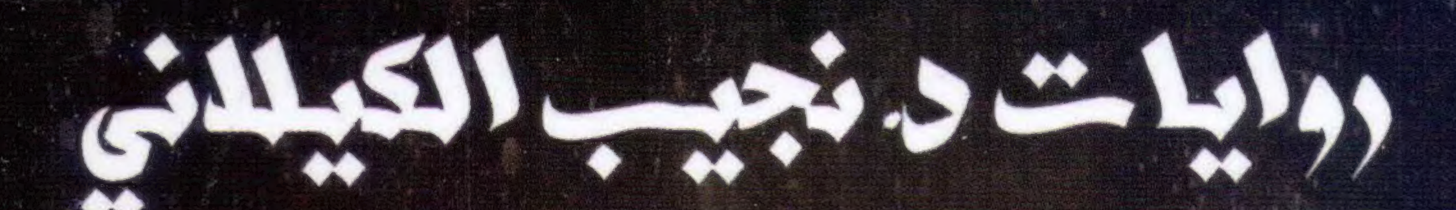
د. نجيب الكيلاني

من روائع الأدب الإسلامي

رجال الله

Men of God

Dr. Naguib Al Keilany



من إصداراتنا











رجال الله

نجيب الكيلاني

الطبعة الأولى للناشر

١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م

رقم الإيداع: ٢٠١٤/١١٣٧٨

الترقيم الدولى:

978-977-255-424-9



للنشر والتوزيع
٥ عطفة فريد - من شارع مجلس
الشعب - السيدة زينب
تليفون: ٠٠٢٠٢٢٣٩٣٧٧١٨
تليفاكس: ٠٠٢٠٢٢٣٩٣٧٧٦٢
daralsahoh@gmail.com

رجال الله

ألقت «فاطمة بنت الوليد» بنظرها خارج الخباء، وأطالت النظر فيما حولها مفتونة بروعة المناظر، وجمال الطبيعة وجلالها . . إن بلاد الشام رائعة حقًا حتى لكأنها قطعة من الجنة التى وعد الله بها عباده المؤمنين، وملأت فاطمة رئتيها بالهواء الرطب العليل، ثم عادت أدراجها إلى حيث كانت تجلس من قبل لتواصل إنضاج الطعام الموضوع فى قدر فوق النار، وهى تغمغم بأرجوزة عربية مشهورة، تروى عن الجهاد الأكبر وانتصار جيوش المسلمين بقيادة أخيها خالد على جيوش الرومان.

ولم تكد فاطمة تنتهى من أرجوزتها حتى أحست بدبيب خطوات عجلى تدلف إلى الخباء وقبل أن تدير وجهها لترى من الداخل تناهى إلى سمعها صوت إحدى صويحباتها وهى تقول:

- «أبشرى يا ابنة الوليد . . إنه ليوم عظيم حقًا» .

فقالت فاطمة فى لهفة :

- «ماذا تعنين يا أختاه»؟

فأجابت :

- «أوه يا فاطمة، إنى لا أعنى غير شىء واحد . وهل يفكر نساؤنا ورجالنا فى غير الحرب؟

فتركت فاطمة القدر والنار المشتعلة تحته، وتوجهت بكليتها إلى صديقتها وقد غمر البشر قسمات وجهها وبرقت السعادة فى عينيها وهى تقول :

- أعلم ذلك .

- واعلمى أيضًا أن جيوشنا قد تخطت أسوار دمشق ففتحت المدينة أبوابها لموكب الحرية والنور والإيمان . .

فطغت على فاطمة موجة غريبة من الفرح وهتفت :

- أحق ما تقولين؟

- ليس هنالك ظلال من شك فيما أرويه يا فاطمة .

وبعد لحظات قصار سوف تسمعين طبول النصر وهى تملأ الآفاق إيذانًا بالنصر الجديد . .

فأقبلت فاطمة على صديقتها تقبلها وتشكرها على هذه البشرى العظيمة التى طال ترقبها لها وقالت :

– اعذرينى يا أختاه ، إنه لنبأ كبير حقًا ، لقد طال حصارنا لهذه المدينة الحصينة حتى كاد اليأس يتسرب إلى نفسى ، إن الرومان لا يسلمون لنا أنفسهم وديارهم بهذه السهولة واليسر . .

– صدقت . . ولكن لا تنسى أنهم قوم ظالمون مستغلون وأهالى البلاد هنا لا يمكن أن يدافعوا عن قوم أذاقوهم الهوان والعسف .

– أجل يا أخت . . إن الرومان يحاربون بلا هدف ، أو قولى إنهم يموتون فى سبيل مجد زائف . أما نحن فنبذل دماءنا من أجل شىء كبير نؤمن به . .

فابتسمت الصديقة ابتسامة ذات معنى ثم همست قائلة :

– آه يا فاطمة لو تسمعين ما يقال لأخيك خالد من مديح وثناء ، إنه سيف الله بلا منازع . . بطل قمع الردة وفاتح العراقين ، وهازم الرومان فى أرباض دمشق . . لكم الفخر يا آل الوليد ، لقد بنى لكم خالد مجداً على الدهر ، لا تبلى جدته ، ولا تعفى آثاره . .

فأجابت فاطمة فى تواضع ظاهر :

- إننا نصول ونجول بروح الله يا رفيقة ولا مجد لنا كأفراد، ولكن المجد والخلود لدين الله، وللإسلام الذى أخرجنا من الظلمات إلى النور، وخرج بنا من ضيق الجزيرة وانعزالها إلى هذا العالم الكبير الواسع لندعو ونحرر وننشر النور..

ولم تكد فاطمة بنت الوليد تكمل عبارتها حتى سمعت دقات الطبول وأبواق النصر تنساب من بعيد، فتجاوبها صيحات التكبير والتهليل من كل مكان فى معسكر المسلمين، وخرج الأطفال والفتيان، ومن بقى من الرجال يهزجون بالأشعار والأراجيز. ويلعبون بالسيوف والرماح، ويثبون هنا وهناك فى فرح غامر.. بينما انتحت فئة ثانية من الرجال ناحية أخرى، وأخذوا يؤدون صلاة الشكر لله من أجل هذا النصر المؤزر الذى طال ترقبهم له، وجلس البعض الآخر يفكر فى المعركة القادمة، ويضع الخطط لزحف جديد تتسع به رقعة الإسلام، وتنتشر به كلمة الحق..

وأسرعت الصديقتان نحو باب الخباء لتمتعا نظريهما بهذه المواكب المبتهجة، وتسعدا بساعات النصر الغالية، ولم تتمالك فاطمة نفسها أن قالت:

- من مبلغ الخليفة عنا بهذا النصر العظيم، لكم تمنيت يا أختاه أن يكون لى جناحان فأطير بهما إلى أبى بكر كى أحمل إليه نبأ الفتح الذى رزقنا به..

- لا تقلقى من أجل ذلك، إن لم نرسل الرسل إلى الخليفة فسوف تسير الركبان بهذا النصر، وتتغنى به فى كل مكان.

وبعد فترة صمت قالت فاطمة فى شرود:

- واشوقاه..

- إلى الديار البعيدة؟؟

- أجل..

- صدقت يا فاطمة.. لقد طالت بنا الغربة ولم تستطع بهجة الشام، ونضرة أراضيه أن تنسينا ديارنا رغم جفافها وجدبها.. الوطن غال.. يدفعنا إليه حنين، وتشدنا إليه ذكرى، لكن ماذا أقول؟؟ يجب أن تعلمى أن عزاءنا الوحيد هو أن غربتنا من أجل الله وكفى..

وبات جليًا أن انتصارات المسلمين الكبرى قد بثت الذعر فى نفوس الأعداء، وكان ذكر هذه الانتصارات مقترنًا دائمًا باسم خالد بن الوليد، وأصبح اسمه هو الآخر كافيًا لأن يثير الاضطراب والهلع فى قلب العدو، وعلم جنود المسلمين- بل أيقنوا- أن وجود خالد على رأسهم بشير بالنصر، وباعث للثقة، وخيل إلى الجميع أنه رجل الساعة بلا منازع، وأنه خير من حمل اللواء، وأنه لا يقل أهمية وعظم منزلة عن الخليفة نفسه، وأوشك بعض المفتونين أن تتغير نفوسهم، وينقلب

إيمانهم بالمثل والمبادئ إلى إعجاب بالشخصية وتقديس لها، وفى الصراع الدامى، والحرب التى لا تفتر سارت الأمور دون أن يلتفت أحد إلى هذا التطور الخطير، وخالد ماض فى طريقه لا يفكر إلا فى رسم الخطط، وتدبير المعارك وتصريف الأمور فى البلاد المفتوحة، ولا يفتأ بين لحظة وأخرى أن يرفع بصره إلى السماء شاكرًا الله على ما وهبه من توفيق، وما حقق على يديه من نصر.

وفجأة ساد الصمت والوجوم . .

وخفتت دقات الطبول رويدًا رويدًا . . ثم اختفت . . حتى الأطفال الصغار كفوا عن اللعب والترنم بالأهازيج والأغانى . .

وأخذ الرجال يتحلقون فى أماكن مختلفة، وعلى وجوههم أسف وحزن . . والحيرة والقلق يسيطران على الجميع . .

ترى ماذا حدث . .

هل هناك جديد بشأن المعركة؟؟ هل تغيرت النتيجة فتحول النصر إلى هزيمة، وأوصدت دمشق أبوابها فى وجوه المنتصرين الأبطال؟ أم أن أحد الأبطال القواد قد قضى نحبه شهيدًا فترك وراءه الحزن والأسى؟

وصارت فاطمة فى حيرة من أمرها، وأخذت ضربات قلبها

تتسارع إشفاقًا وخوفًا، وصديقتها بجوارها قد استولت عليها الدهشة أيضًا . .

قالت فاطمة وقلبها يرتجف :

– ماذا هنالك يا أختاه؟؟

– لا أدرى، لكن قلبى ينبئنى أنه خطب جلل . . قلبى لا يكذبنى أبدًا . .

وفكرت فاطمة فى أن تبعث بصديقتها لتستجلى حقيقة الأمر، وتعود بالخبر اليقين غير أنهما فوجئتا بخالد بن الوليد يقبل فى هذه اللحظة مستأذنًا فى الدخول، فتوارت الصديقة بينما برزت إليه أخته فاطمة، واستقبلته فى لهفة غامرة حامدة الله على سلامته ثم هنأته بالنصر الذى أحرزه فى كلمات سريعة مضطربة، ولم تستطع أن تخفى قلقها على هذه الظاهرة التى تبدو فى المعسكر منذ لحظات . .

وألقى خالد بنجاد سيفه فى ركن من أركان الخيمة ثم غمغم وقطرات العرق تتقاطر على جبهته السمراء .

– جرعة ماء يا فاطمة . إن الظمأ يكاد يقتلنى . .

وتكلمت فاطمة وهى تقدم له الماء :

– هل جد جديد؟ أراك متغير السحنة، ثم إن المعسكر يسوده الوجوم منذ لحظات .

فأسلمها خالد إناء الماء، وصمت برهة، ثم قال وقد تبللت عيناه بالدموع.

– وردت إلينا أنباء تقول: إن الخليفة قد ذهب إلى الرفيق الأعلى..

فصرخت فاطمة على الرغم منها:

– أمات أبو بكر..؟

– أجل يا فاطمة.. مات ونحن أحوج ما نكون إليه.. ألسنا ننازل الآن أقوى دولتين فى الدنيا: الفرس والرومان؟؟ فأطرقت فاطمة وقد انسابت دموعها وقالت:

– فليرحمه الله.. أدى الأمانة وحمى الذمار وجدع أنف المرتدين، وقضى على الفتنة، ثم رمى بنا فى شتى أنحاء الدنيا لنحقق كلمة الله فى الأرض.. له الجنة..

وظلت الدموع تنهمر من عينى فاطمة، لكن ماذا يجدى البكاء والنحيب، وقد حم القضاء، ونفذ قدر الله. وتحققت سنته التى لا فرار منها ولا فكاك؟ صحيح أن المصاب فى أبى بكر فادح والفاجعة فيه لا تضارعها فاجعة، وخاصة فى هذا الوقت العصيب بالذات، لكن لا حيلة فيما أراد الله..

وفكرت فاطمة فيمن سيخلف أبا بكر، وتساءلت بينها وبين

نفسها عن مدى كفاءة الخليفة الجديد، وهل سيحمل العبء بشجاعة وإيمان مثلما فعل أبو بكر؟ وهل سيحقق الله على يديه النصر؟ وهمت أن تسأل أخاها عن ذلك كله، لكنها استحيت أن تثير مثل هذه الخواطر فى وقت لا يفكر فيه الناس- على ما يبدو- إلا فى المصاب الفادح الذى نزل بهم، واختطف أبا بكر من بينهم.

وقبل أن تترك فاطمة مكانها سمعت أخاها يقول:

- وأوصى أبو بكر قبل موته بأن يخلفه عمر بن الخطاب.

فقالت فاطمة فى دهشة:

- عمر..

- أجل..

- لكن..

- لكن ماذا يا فاطمة؟

- أعنى أن فيه شدة..

- وهل حكم الناس يكون عن طريق التفريط والتهاون..

- ثم إنه يا خالد يحمل لك فى نفسه شيئًا منذ زمن بعيد..

فقال خالد فى لهجة صارمة تحمل فى ثناياها شيئًا من اللوم الواضح:

- لا تنسى يا فاطمة أن النبى ﷺ قال: جعل الحق على لسان عمر. وتقويم الرجال يا فاطمة يجب ألا يخضع لعواطفنا، ورغباتنا الشخصية . .

وسكتت فاطمة.

لقد كبر أخوها فى عينيها أكثر من ذى قبل . .

إن أخاها قائد يفهم واجبات القيادة، وفى الوقت نفسه جندى يفهم أصول السمع والطاعة ولا يحمل لخليفته- رغم ما بينهما- إلا الثقة والحب والتقدير، لأن الغاية الكبيرة التى تجمعهما لا تدع فرصة للمطامع الشخصية أن تتسلل بينهما بالتفرقة والعداء . . وفى الواقع لم يكن خالد يفكر بعد ذلك إلا فى مواصلة الزحف وتطهير دمشق وما حولها من الأعداء . .

لم يكن خالد يعلم أن هناك رسالة أخرى قد وصلت من الخليفة عمر بن الخطاب، ومن البديهى أنه لم يكن يعرف- تبعًا لذلك- ما تحويه هذه الرسالة الخطيرة، ولم يكن أحد يتصور أن يحدث ذلك فى هذا الوقت بالذات لأنه يموج بالأحداث الجسام، والأعجب من ذلك أن «أبا عبيدة الجراح» قد كتم أمر هذه الرسالة عن خالد أمير الجيش، ولم يكن أبو عبيدة فى هذا الوقت إلا أمير لواء من ألوية الجيش . .

وظل أمر الرسالة مطويًا عن الجميع حتى انتهى المسلمون من أمر الرومان فى دمشق، وإرساء قواعد العهد الجديد فى المدينة، وما إن استتب الأمر، وهدأت الأحوال حتى أقبل أبو عبيدة على خالد، وفى يده الرسالة التى بعث بها عمر. . كان أبو عبيدة مترددًا . .

فالواجب يدفعه دفعًا لأن ينفذ أوامر الخليفة الجديد دون إبطاء، وحبه لخالد، وتقديره لبطولاته تمنعه من أن يصرح بالحقيقة الرهيبة، أيقول لخالد: إن الخليفة قد عزلك وأنت فى أوج مجدك. . والأقسى من ذلك أن أمير الجيش الجديد سيكون أبا عبيدة نفسه. . يا له من موقف صعب. .

وزاد من صعوبته أن خالدًا إنسان كبير وأن أبا عبيدة هو الآخر رجل فاضل بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى. .

ولم يجد أبو عبيدة مناصًا من أن ينفض ما بقلبه فى محضر خالد. . وفى تواضع وتأثر همس أبو عبيدة بفحوى الرسالة التى بعث بها عمر فتقبل خالد الأمر بهدوء وكأن لم يحدث حدث ضخم. .

لقد كان يجاهد فى سبيل الله، وهو قائد للجيش كله والآن لم يعد كما كان، لم يكن هذا يمنع من أن يظل مجاهدًا فى سبيل الله– فليحمل سيفه، وليمضِ فى طريقه. .

فالحرب هى الحرب . .

وكلمة الحق التى يحملونها جميعًا لم تتبدل .

والغاية الكبيرة التى يعمل لها الجنود ما زالت تنير الطريق ، ولا ضير أن يكون خالد جنديًا أو قائدًا ، وأمير المؤمنين يجب أن يكون مطاع الأمر مسموع الكلمة ، والفترة الحرجة التى تمر بها الدولة الوليدة يجب أن تتسم بالهدوء والثقة وإنكار الذات . .

وبعد فترة صمت قال خالد لأبى عبيدة :

- يرحمك الله . . ما منعك أن تعلمنى حين جاءك الأمر؟

وأجابه أبو عبيدة :

- إنى كرهت أن أكسر عليك حربك ، وما سلطان الدنيا أريد ولا للدنيا أعمل ، وكل ما ترى سيصير إلى زوال وانقطاع ، وإنما نحن أخوان ، و ، ما يضير الرجل أن يليه أخوه فى دينه ودنياه . . وتناثرت الشائعات والوشايات والفتن .

لم يستمع خالد لأوقايل الوشاة ، ولم يلقَ بالاً لأولئك الذين حرضوه على التمرد والعصيان وصرف النظر عن همسات الإثم التى تفوه بها المفتونون بمجده وبطولاته والتى تنفثها الشيطاطين بين الجموع وحينما قالت له أخته فاطمة :

– كـان قلبى يحـدثنى أن ابن الخطاب سـوف يفـعلهـا ويعزلك . . لم يعلق على حديثها بشىء .

وفى الصباح التالى كان أبو عبيدة على رأس الجيش مكان خالد . . بينما حمل خالد سيفه ومشى خلفه أطوع من بنانه ، وليس فى قلبه مثقال ذرة من حقد أو تمرد . . عندئذ نظرت فاطمة إلى أخيها فى إعجاب وتقدير ثم نظرت إلى أبىَ عبيدة فى غير ما سخيمة أو أسف ثم غمغمت فى أثر :

– الله أكبر . . لكم النصر أينما سرتم أيها المؤمنون يا رجال الله . .

ابن سبيل

لم تكن الشمس قد أشرقت بعد وتباشير النهار أخذت تزحف من الأفق الشرقى، وقليل من الضوء الخافت بدأ يتسلل عبر ثغرات النوافذ والأبواب. وفتح الشاعر الكبير «جرير» عينيه فوثب واقفًا وهو يلكز زوجته ويقول:

– ويحك يا امرأة. لقد أشرق النهار.. وكان يجب أن تكون راحلتى فى طريقها الآن إلى الخليفة الجديد عمر بن عبد العزيز.

فقالت زوجته وهى تتثاءب:

– صدقت.. إنها فرصة العمر. وما كل يوم يولى خليفة جديد.. هيه.. هات أوزانك وقوافيك. وتخير كلماتك.. فعمر بن عبد العزيز ليس بالرجل الهين.. وقد سمعت أن رأيه فى الشعر لا يسر أحدًا منكم..

وهتف جرير بأحد خدامه كى يعد له ماء للغسيل، ثم يجهز

له الطعام والشراب، وما إن إطمأن إلى ذلك حتى التفت إلى زوجته قائلاً:

- لا أظن أن خليفة أو أميرًا من الأمراء يستطيع أن يعادى الشعر.. إنه لسان الدولة وسجلها المجيد وسيف بتار فى معارك السياسة.

فأجابت زوجته مشفقة:

- لا أظنه يعادى الشعر فعلاً، لكنه ينزله منزلته..

- ماذا تعنين؟؟..

- أعنى أن الشعر يد تمتد.. تطلب المال.. الثمن.. وعمر ابن عبد العزيز رجل من رجال الله يفعل ما يفعل لوجه الخير.. لقد دالت دولة الشعراء، وجاءت على أنقاضها دولة العلماء..

فقال جرير معتدًا:

- ويلك يا جاهلة.. العرب هم الشعر، ولو مات الشعر لدالت دولتنا.. ذلك هو منطق التاريخ والحوادث..

وأخذ جرير يفكر فيما تقوله زوجته، ويفكر فيما يرويه الناس عن عمر بن عبد العزيز، ويفكر آخر الأمر فى الأزمة التى تأخذ بخناقه، فالخليفة السابق ظل مريضًا لفترة ليست

يقصيرة، والهدايا والمنح والجوائز التى كان يغدقها على الشعراء قد انخفض معدلها، والمال شح فى يده، وتولية خليفة جديد فرصة يجب ألا تفوت، وإذا لم ينل ثمن شعره فى حفلات التولية فهل يناله فى مواكب الرثاء.. ؟؟؟

كلا.. كلا.. لن يكون ابن عبد العزيز كما زعموا، فقد حكم الحجاز بالعدل والبر، وملأ الآفاق عدلاً ونوراً، وعقد مجالس الشورى، وسعى إلى العلماء فى ديارهم، وأبى أن يسعوا إليه، وهاجم الطغاة والطغيان دون أن يخاف بطش خليفة، أو خطر حقود... مثل هذا الرجل لا يظلم أحداً وبالتالى لا يظلم الشعراء..

وانطلق ركب جرير إلى حيث يقيم الخليفة، وخفقات الأمل الحلو تتراقص بين جوانحه، ومن آن لآخر يهزه إلهام الشعر ويبعث ما يشبه القشعريرة أو الرعشة فى جسده فينساب الشعر طلقاً جزلاً رصيناً يمتدح فارس بنى أمية، وفتاها العادل، ورجلها الأول: عمر بن عبد العزيز..

وعلى طول الطريق كانت الأنباء تترى وروايات عجيبة تشبه الأساطير يتردد صداها فى كل مكان، وتصرفات لا يكاد يصدقها العقل تتكاثر على جانبى الطريق، وهتاف باسم عمر يملأ الآفاق..

ولعبت الهواجس برأس جرير حينما قال له أحد الأعراب :

- ويلك يا جرير . . لن تعود من الخليفة إلا بخفى حنين . . لقد قال فى الأيام الأولى من عهده حين جمع الناس :

- «أما بعد : فإن خلفاء بنى أمية قد كانوا أعطونا عطايا، ما كان يصح لنا أن نأخذها وما كان يصح لهم أن يعطونا إياها، وإنى محاسب عليها اليوم نفسى، لذلك أردها لبيت المسلمين، وأبدأ بنفسى وأهل بيتى» .

فماذا ترجو من رجل مثله يا جرير؟ . . لقد انتزع جواهر زوجته وردها إلى بيت المال . . ورد إلى نصرانى أرضًا قد اغتصبها أحد أشراف بنى أمية . وصادر كثيراً من أملاك أولاد عمه أمراء بنى أمية . . » .

ومع ذلك فقد سار جرير فى طريقه، لا يرده راد، ولا يصرفه عن غايته شيء، إن كل هذه الأخبار الطوال التى يسمعها عن عمر لا تزيده إلا إعجاباً به، وتقديراً له بل ولا تزيد مادته الشعرية ألا ثراء وجمالاً، وهل يضايقه أن يكون الخليفة عادلاً باراً زاهداً فى عبث الدنيا ومتاعبها؟؟ ليس الأمر كما يصوره الناس ويبالغون فيه، إن عمر صاحب العقل والزهد والخلق لن يتنكر للشعر والشعراء، ولا ينظر إلينا كفئة من المتعطلين المتسولين . .

وما إن وصل جرير إلى بيت الخلافة حتى زاعه ما رأى . . ليست هناك جياد مسرجة ، والحراس والشرطة لا يملئون المكان ولا يثيرون فيه الضجة والرهبة الجديرة بحاكم كبير ، ولا أثر لجوقة العازفين بالمزامير ، أو الضاربين على الطبول والجوارى لا ينظر من خلال النوافذ ولا تنبعث من هناك الأنغام الحالمة التى تنبى عن الرفاهية والمتعة والنعيم .

إن جريراً لا يرى بالباب سوى الحاجب ولا يبصر بالداخل إلا مزاحم خادم الخليفة وقليلاً من الرجال العلماء يتحركون فى هدوء بلا مظاهر ولا مواكب . . حتى لكأن الأمر لا يعدو ذهاب خليفة ومجىء خليفة . . رجل مكان رجل . . الدنيا انتقلت من مكان إلى مكان . . هذا أصدق تعبير كان يتصوره جرير حينما سمع أن الخلافة انتقلت إلى يد عمر بن عبد العزيز .

وطرق جرير الباب . .

وصاح صوت الحاجب :

- إلى أين يا أخا العرب؟

فقال جرير فى اعتداد :

- أنا جرير . . جئت لمدح الخليفة .

فقال الحاجب :

- الخليفة لا يسمح بدخول الشعراء ولا يقابلهم . .

- عجبًا كيف تقول ذلك الكلام؟ . . هذا أمر ما سمعنا به من قبل . .

- إن الخليفة ينظر فى مظالم الناس، ويدبر شئونهم، وأظن أن ذلك أولى من سماعه لقصائد الثناء والمديح . .

فقال جرير وقد أصيب بخيبة أمل كبرى :

- يستطيع الخليفة أن يفعل الأمرين، ينظر المظالم ثم يسمع الشعر . .

فقال الحاجب ساخرًا :

- لن يسمع الخليفة جديدًا . كلامكم رائع وجميل أيها الشعراء . . لكنكم تقولونه للجميع . . واليوم وغدًا .

فأجاب جرير ببساطة :

- لأن الناس يريدون أن يسمعوا شعرنا . . والخلفاء كذلك، أصبح الشعر ضرورة من ضروريات حياتنا . . والخروج عن هذا العرف هو الغريب حقًا .

وشعر بالألم الشديد يعتصر فؤاده . إن معنى ذلك أن يشقى الشعر والشعراء فى أيام العدل والحرية والسلام، ومعنى ذلك أن يحمل الشعراء معاولهم ويحرثون الأرض، أو يحملون السلع ويتجرون فى الأسواق، ويخرجون على حياة الجوائز والعطايا التى ألفوها .

ولم يفقد جرير الأمل كلية بل ظل يتردد على مقر الخلافة طوال شهر بأكمله دون أن يحظى بلقاء الخليفة الجديد.

وابتسم له الحظ حين رأى أحد الفقهاء يتجه صوب الباب قاصداً الخليفة، وجرير يعلم منزلة العلماء لدى عمر، فاندفع جرير إليه، وأخذ يرجوه ويتوسل إليه كي يأخذ بيده إلى الخليفة حتى يمدحه، وأمسك جرير بكم الفقيه وأخذ يقول:

يا أيها القارئ المرخى عمامته

هذا زمانك.. إنى قد مضى زمنى

أبلغ خليفتنا إن كنت لاقيه

أنى لدى الباب كالمشدود فى قرن

وابتسم الفقيه، ووعد جريراً خيراً، ثم ذهب إلى الخليفة يستأذن له، وقال الفقيه لعمر: كان النبى ﷺ يمدحه الشعراء، ويعطيهم الصلات.. فلا تخرج عما فعله رسول الله يا عمر.. وقبل عمر لكنه اشترط على جرير ألا يقول إلا حقًا.

وكان هذا الشرط قاسيًا بالنسبة لجرير، إن الشعر تحليق ومبالغة، وخيال جميل وإذا خرج عن أكاذيبه الحلوة المستباحة، وانفعالاته المهمومة لن يكون شعراً، وماذا يفعل؟ هذه هى فرصته الوحيدة.. لينسَ القصائد الطوال التى أعدها

فى الطريق وليتجاهل روائع نظمه التى أخذ يحلم بها فى لياليه السابقة، وليبدأ من جديد، وليقل شيئًا أى شىء يليق بمقام الخليفة . . ولا يكون إلا حقًا . .

وترنم جرير:

إن الذى بعث النبى محمداً

جعل الخلافة فى إمام عادل

والله أنزل فى الكتاب فريضة

لابن السبيل وللفقير العائل

إنى لأرجو منك خيراً عاجلاً

والنفس مولعة بحب العاجل

فقال عمر:

- يا جرير: أأنت من أبناء المهاجرين أم من أبناء الأنصار فنعرف لهم حقهم؟ أم من فقراء المسلمين فنأمر صاحب الصدقات أن يصلك بما يصل به قومك؟ أم ابن سبيل فلك عندنا ما لأبناء السبيل: زاد ونفقة تبلغك بلادك، وركوبة تحملك . .

وطأطأ جرير رأسه فى أسى . . إنه أمام رجل لا يريد أن يشترى الكلمات، ولا تهز أريحيته الألفاظ الضخمة، والمدح

الرصين ولا يريد أن يسمع إلا الحقيقة حتى فى الشعر، وهمس جرير فى صوت خفيض:

- أنا ابن سبيل يا سيدى الخليفة.

- لنعطك ما نعطى لابن السبيل..

وحينما خرج جرير تلقفه الشعراء المنتظرون لدى الباب وكلهم لهفة وشوق إلى ما فعل جرير مع الخليفة وما أعطاه، فهز جرير رأسه، ثم قال:

- هذا رجل يعطى الفقراء ويمنع الشعراء..

وفى غمرة ذهولهم، وخيبة الأمل التى غشيت اجتماعهم انسل جرير عائداً من حيث أتى وهو يغمغم:

- أيها المساكين.. إنه رجل لا يتاجر بالكلمة.. فانتظروا عهداً آخر وخليفة جديداً.. غير أن جريراً كان يحس فى قرارة نفسه وهو يفكر فى أمر عمر بن عبد العزيز أنه أمام سماء ما طاولتها سماء..

□□□

أبو خيثمة

سنوات قلائل، تلك التى مرت منذ أن هفا إلى وجود شعاع الدعوة المحمدية . . ومع ذلك فاليوم ترى المدينة وقد احتشد فيها ثلاثون ألفًا مستعدين للزحف شطر شمال الجزيرة العربية حيث تتوثب جنود الرومان.

ما أعجب الزمان وتصاريفه، أهذا هو مصير الطريد المهاجر محمد، الذى كان بالأمس مادة للسخرية، ومناط الإيذاء؟ . . فما باله اليوم وقد فتحت له المدائن أبوابها، وأسرعت إليه وفود القبائل، وزعماء العشائر يطلبون الأمان ويؤمنون بالله . . ثم ها هو يتحرك كالطود الشامخ لينازل جحافل الروم الذين اعترضوا طريق الدعوة، وفرضوا الضغط والإجحاف ضد الحرية وأجنادها . .

اليوم قائظ . والشمس ملتهبة تكاد تشوى الوجوه . .

وتُحيل جلاميد الصخر إلى كتل من النار المتأججة، وأبو

خيثمة ينطلق بعوده النحيل ناحية المدينة . . إنه يمضى كاسف البال، شارد النظرات مضطرب الحركات، يحث خطاه نحو المدينة غير عابئ بما يتقد حوله من حر لافح، ولا قيظ أليم.

إن أبا خيثمة قد أضحى فريسة للهم القاتل، والألم الممض وأرق نومه، وضميره الهادئ المطمئن . . صار مرتعًا للحيرة والشك، وميدانًا للاصطراع النفسى القاتل . . لمَ كل هذا الضنى والعذاب يا أبا خيثمة؟ . إنك تتمتع بصحة قوية، وذرية طيبة مباركة، ولك من النساء زوجتان كريمتان يؤنسان وحشتك فيهما حلاوة الحديث، وجلال الطلعة، وبشاشة الرضا، ولك بيت من أجمل بيوت المدينة وأروعها يحفه بستان فواح النبت، نضير الأشجار، وعبق الشذا، ولك من الإبل والأغنام والمال ما يقر عينك، ويرضى دنياك، ويهنئ لك الفؤاد . .

ماذا بعد ذلك يا أبا خيثمة؟؟ ألم يتم الله عليك نعمته بالإسلام فآمنت، وانتظمت فى سلك الداعين إلى الله، وخضت مع محمد المعارك حاملاً حياتك على كفك، غير هياب ولا وجل تشترى الحياة الآخرة بالدنيا الفانية.

لكن آه يا أبا خيثمة . . إنك لن تنسى أبدًا تلك الليلة الليلاء، ولن تنسى ما أصابك من بله وخيبة آنذاك، وأى داء وأى خيبة يا أبا خيثمة . . إن أبا خيثمة ليذكر تمامًا ماذا حدث

فى تلك الليلة ويذكر مدينة الرسول ولا حديث لها غير التعبئة العامة التى دعا إليها الرسول عليه الصلاة والسلام، وأبو خيثمة يذكر تمامًا كيف وسوس له الشيطان بحديث كله تقاعس وتثبيط وزيف ودهاء. فما لمحمد وللرومان! إن دون الوصول إليهم آمادًا طويلة وفيافى قاحلة، ومشاقًا تنوء بحملها الجبال، إن الطريق إليهم كله أهوال، ثم إننا معشر المسلمين لا نكاد نضع السيوف فى أغمادها. ولا تكاد تأوى الإبل إلى مرابضها حتى يتهيأ لنا ولها قسط من الراحة حتى يدعو النفير، وتدق طبول الجهاد من من جديد.

ثم هناك كثيرون غيرى يستطيعون أن يديروا رحى الحرب ويشعلوا نارها، ولن يضيرهم أن يتغيب أبو خيثمة.. لكن.. كيف ذلك يا أبا خيثمة؟.. إن القرآن يقول: ﴿ انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٤١]. وهذا صحيح، غير أنك يا أبا خيثمة قد ساهمت بسهمك، وأدليت بدلوك، وماذا عليك لو تخففت من أعباء النضال ولو مرة واحدة؟..

ثم أخذ الكرى بمعاقد أجفان أبى خيثمة بعد أن قضى شهراً طويلاً من تلك الليلة الليلاء وهو نهب للأفكار المتباينة والهواجس المضطربة والمشاعر الموزعة المختلفة.. وكان نومًا مليئًا بالأحلام المتصلة المزعجة.

وأصبح الصباح ولا حديث للمهاجرين والأنصار غير الجيش المتأهب للارتحال، ويدرك المار فى شوارع المدينة ومتعرجاتها انشغال المسلمين بالمعركة المقبلة . . فهذا فتى قد حمل سيفه، يروح ويغدو فى فخر وأمل، ويبتسم للغد المجهول ويمنى نفسه بالنصر المؤزر ولا شىء غير النصر بإذن الله . . وهذا صبى حدث السن يتعلق بثوب النبى واضعًا حياته بين كفى الرسول حتى ينال الشهادة فى سبيل الله، فيمسح النبى على رأسه مبتسمًا داعيًا له بالبركة والخير، وهناك فى طرف من أطراف المدينة حشد من الشباب قد أقاموا معسكرًا بدائيًا يتدربون فيه زحفًا على الرمل، ولقاء بالسيوف، وتسابقًا فى إطلاق الرماح . . وفى جانب أحد الخبراء بضروب الحرب ووعثائها وأسفارها، يخط برمح فى يده أسهل الطرق وأوفقها حربيًا . ويرسم للصحابة مبينًا موضحًا، وفى شوارع المدينة يجرى الغلمان فى فرح ومرح يرددون أناشيد الجهاد فى عذوبة بارعة وسذاجة فطرية، ولو أتيح لعين أن ترقب ما وراء جدران البيوت لرأت ربات الحجال وهن يلقين الأحاديث عن كيفية تضميد الجروح وإسعاف الساقطين فى ميدان الوغى . . وطبيعى أن يرى المسجد الكبير فى المدينة وأفواج المسلمين لا تكاد تنقطع عنه مصلين مبتهلين . .

وارتحل الجيش نحو وجهته . .

وكان أبو خيثمة من القاعدين المتقاعسين، وآب إلى بيته

يقتات الألم، ويلوك الأوجاع والأحزان فلا امرأته الأولى تسليه، ولا زوجته الثانية تذهب بابتسامتها عنه الأحزان، ولا بستانه بأريحه الفواح ونسيمه العاطر بالذى ينعش حياته.. ويبعث النشوة فى قلبه..

ويحك يا أبا خيثمة. ليتك تستطيع أن تشترى راحة البال ورضاء الضمير بدنانيرك كما تشترى الإبل والمتاع، إنه القلب يا أبا خيثمة بين أصابع الرحمن وحده، مقلب القلوب والأبصار إن الحياة إذا اجتاحها الهموم، وتسربلت باليأس والأرق، أضحت جحيمًا ما بعده جحيم، فلا شفاء يا أبا خيثمة مما أنت فيه إلا بالموت.. الموت؟؟ دع الموت جانبًا يا أبا خيثمة، لقد آثرت الفرار منه. وهو الذى كان يفر منك يوم الطعان والجلاد.. إن أقرانك يا أبا خيثمة الآن يضربون فى الوهاد والفجاج، يخوضون إلى الله عرض الصحارى فى إباء لا يعرف الخنوع وهمة لا تعرف الفتور.

ثم تفيض عيون أبى خيثمة بالدمع السخين بينما تتوارد الخواطر على مخيلته، ويهتف فى تشبث وإصرار وإيمان: «يا رب رحمتك يا رب..».

ثم يعود أبو خيثمة لذكر الأقران والخلان الذين خاضوا - ويخوضون- مع النبى ﷺ الغمرات، ويقول لنفسه: أترضى بالحياة بعدهم ويلذ لك المقام؟..

وضاقت الحياة بأبى خيثمة، كما ضاقت به نفسه، وأفزعته الأحلام كما روعته الحقائق الجلية، فما إن أشرق الصباح حتى يمم وجهه شطر الهضاب التى تشرئب بأعناقها إلى المدينة، وأسرع الخطو نحو هاتيك الهضاب تاركًا المدينة خلف ظهره لعله يلقى شيئًا من هدوء البال وراحة الضمير فى جو الصحارى الهادئ الوادع، وبينما هو فى سيره؛ إذ به يسمع صوتًا نديًا مجلجلاً ينبعث من بعيد فيثير الشجن، ويأخذ بمجامع الفؤاد. . ما هذا؟ لعله صوت حادٍ من حداة النجائب، وقادة الركبان وقد آبُوا من سفرة طويلة، وما إن اقترب وقت الظهيرة حتى كانت تلك الإبل المقبلة على قيد خطوات منه وإذا بحاديها يبدؤه بالسلام، ويقبل على أبى خيثمة مقبلاً ومعانقًا، ولم يخطئه أبو خيثمة فقد عرفه فى التو واللحظة. فهو أحد أصدقاء صباه، ورفقاء شبابه، يقطع عمره فى الأسفار والرحلات من أجل التجارة.

وجرى بينهما الحديث متشعبًا وقطع صديقه التاجر الحديث فجأة. . وقال:

- ألم يأتك نبأ محمد يا أبا خيثمة؟

- ماذا بربك عنه وعن جيش المسلمين؟

- أتقصد جيش العسرة؟

- عسرة؟ أية عسرة؟ . إنهم ثلاثون ألفًا من المسلمين الأشداء . .

- أجل . . لكن كانت فى طريقهم أهوال .

- أكمل بربك الحديث . .

- لقد نضبت عليهم آبار الماء ، ونفقت منهم الأنعام على قلتها . والتى لم تمت ذبحوها حتى يمتصوا من أمعائها بعض الماء من شدة العطش حتى صار كل ثلاثة يتتابعون على ظهر دابة واحدة ، بل الأنكى والأمر من ذلك يا أبا خيثمة أنهم يعتصرون روث الدواب حتى يقطر لهم بعض الماء ليشربوا .

وصمت التاجر العربى هنيهة بينما هتف أبو خيثمة فى انفعال :

- لهف نفسى على محمد وأصحاب محمد ، لهف نفسى على السائرين فى بطون الصحارى ، يشدون الرحال إلى الله ويحثون الخطى نحو الجنة . .

عاد أبو خيثمة إلى بيته دامع العين وقد اعتزم أمرًا ، وقد بانت على وجهه علائم الجد ، واتسمت ملامحه بسمات الصرامة والإصرار الأكبر . وغارت الابتسامة من صفحات وجهه ، ولم يبقَ إلا بريق عينيه وهما تتقدان وتشعان إصرارًا . . تراه ماذا ينتوى؟

ودخل منزله بالمدينة، فوجد كعهده به هادئًا ساكنًا يوحى بالرضى والطمأنينة، ولكن أنى له الرضا وأنى له الطمأنينة؟؟ وجد زوجتيه يشرق وجهيهما بالنضارة والوسامة، ويشتعل حبًا ووفاء. : وجد عند كل منهما طعامًا شهيًا طريًا، وماء عذبًا باردًا لكن أى طعام ذاك؟؟ والله إن بضع بلحات جافة مع محمد وصحبه أحب إليه من خراف لذيذة شهية، وأن تلك القطرات التى يعتصرونها من روث الدواب فى قلب الصحراء لأشهى إلى نفسه من أى شراب فى الدنيا.

ثم ينظر أبو خيثمة إلى بستانه الفواح العبق فيهتف به قلبه قائلاً: والله إن لهيب الصحراء وجدبها، وجفاف ريحها لأحب إلى الأحرار المؤمنين.. وهم غزاة فى سبيل الله..

- أبعدا عنى هذا الطعام..

احملا عنى ذاك الماء العذب البارد، فما بى ظمأ ولا جوع، إلا إلى الله. إلى الأحباء.. أأبو خيثمة هنا فى الراحة والنعيم، ورسول الله فى الشمس والريح..؟

هلموا إلىَّ بجوادى وسيفى وزادى.

فوالله لن أدخل عريشة إحداكما إلا بعد أن ألحق بمحمد.

وانطلق أبو خيثمة كالقضاء النافذ، إلى الشمال، إلى جيش العسرة، وانطلق جواده يسابق الريح وأبو خيثمة يعبر بخياله

الآكام. ويسابق بآماله الجواد، وخفقات قلبه تسرع فى نبضها، مرحى... مرحى، سيلقى محمداً وصحبه الأبرار واستطاعت الراحة والهدوء أن يعرفا طريقهما إلى قلبه. ومس برد السلام شغاف فؤاده وقر ضميره الحائر، وبدت الدنيا أمام عينيه براقة سعيدة وانماعت أمام بصره سالف الأوهام والآلام ألا ما أحلى راحة الضمير. وهدوء البال. وما أحلى صفاء النفس إذا شقت طريقها إلى الله!!..

وسار أبو خيثمة تسلمه الوهاد. لا تثنيه حرارة الشمس، . ولا يمنعه ظلام الليل، ولا يؤيسه بعد المشقة ووعثاء الطريق.

ولاحت فى الأفق لعينى أبى خيثمة مضارب الخيام ورايات المهاجرين والأنصار، وكلما اقترب تناهت إلى سمعه جلبة رائعة، كلها تكبير لله وتحميد.. ودعاء، وضراعة.

والتقى أبو خيثمة بالسرايا والطلائع المسلمة المنبثة فى شتى الفجاج والمشارق التى تحيط بالجيش جيش العسرة الذى يرابط فى «تبوك».

ثم كان اللقاء الحار والعناق الطويل، والدموع المختلطة بالبسمات، والقبلات الخالصة الوفية، أليسوا رفقاء الجهاد، وإخوة الإسلام، وأحباء الصبا والشباب!!..

ولم يبرز للمسلمين وهم فى تبوك أحد لينازلهم أو

يناوشهم، وانسحب الأعداء قابعين خلف حدودهم لا ينوون حربًا ولا شرًا، أما القبائل العربية الشمالية المتنصرة، فقد لاذت بالاستسلام التام، والخضوع لأمر المسلمين. ووفدت على محمد رسلهم وهم يحملون إليه الود والمحبة والسلام، فاستبشر محمد بهذا الفتح الذى جاءهم سهلاً بعدما لاقوا من متاعب الطريق ومشاقه فأعطاهم الأمان، وأبرمت مواثيق الصلح، وعهود الجوار الصادقة الوفية.

ثم سار ذكر جيش العسرة، وانتصار المسلمين فى تبوك فى كل مكان، وتحدث بذكره البدو والحضر، وقبع المنافقون فى أوكارهم يعضون من الغيظ على الأنامل، وترددت فى الخافقين قصة الإسلام المندفع المتيقظ الذى لا تعيقه سدود ولا تصده إمبراطوريات، ولا يفل من عزمه طغاة متربصون.

ثم كانت العودة الميمونة.

ها هو أبو خيثمة يميس طربًا على جواده الحبيب، ممتشقًا حسامه بيمينه، ويبدو بين صحابه وأخدانه فى لبوس الحرب كأحسن ما يكون فرحًا وسعادة وبشرًا، وها هو النبى ﷺ يشرق بطلعته فى المقدمة، وسحر البيان ينسال من فيه فيأخذ بمجامع القلوب. وها هم الجنود الأحرار تتعالى أصواتهم بالتكبير والتهليل.

إن أبا خيثمة ينظر إلى المدينة من بعيد فتبدو له أبنيتها ونخيلها . . ثم يسرع خياله إلى داره الوادعة وبستانه الجميل . وزوجتيه الحانيتين ، ثم يتذكر ذلك النصر الذى أيد الله به المسلمين فيخفق قلبه خفقات غامضة حبيبة إليه . ويلتفت إلى من حوله فيهتف من أعماقه مكبرًا مهللاً .

وما إن يصل الركب الربانى الخالد إلى المدينة ، حتى تصل مسامعهم أصوات الغلمان الأحباب ، الفرحين بنصر الله والمتغنين بعودة آبائهم وإخوانهم ، بأصوات صادقة بريئة ساذجة ، ولعل أبا خيثمة قد سمع بين هاتيك الأصوات صوت أحد أبنائه وهم يرددون معًا النشيد القدسى الخالد الذى استقبلوا به الرسول ذات يوم :

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع

وجب الشكر علينا ما دعا لله داع

أيها المبعوث فينا جئت بالأمر المطاع

جئت شرفت المدينة مرحبًا يا خير داع

□□□

الإمام الأعظم

كـان يمـضى فى شـوارع الكوفـة، ويتلفت هنا وهناك، ويرمق الناس والمبانى والدواب، ويتفحص كل ما تقع عليه عيناه كأنه قارئ واع دقيق يتصفح كتابًا مهماً. لقد كان غريبًا على الكوفة، ولم يكد يمر عليه وقت قصير حتى ترك راحلته فى مكان أمين، ثم اتخذ سمته ناحية المسجد الكبير القائم وسط المدينة، وكان الناظر إليه يشعر لأول وهلة أن هذا الرجل غريب، لأن غبار السفر ما زال عالقًا بردائه الفضفاض، ووجهه الأسمر الجامد الملامح، وأجفان عينيه اللتين بانت فيهما آثار سفر وسهر متعب طويل، وكانت الكوفة فى ذلك الوقت مدينة مهمة من مدن العراق.. تتجمع فيها فلسفات عدة، وأفكار متباينة، وفيها عرب وعجم، وشيعة وخوارج وأمويون، وفيها مذاهب شتى فى الفقه والسياسة، بالإضافة إلى الحركة التجارية النشطة..

وكانت الدولة العباسية آنذاك فى أعوامها الأولى تحاول أن

تقضى على المناوئين والحاسدين وتبنى استقرارها ومجدها على أكوام من الأشلاء وعلى شطآن بحيرات من الدم . . أما هذا الضيف الغريب، فهو أحد أحفاد العرب الذين استوطنوا مصر بعد أن فتحها عمرو بن العاص، وقد جاء إلى الكوفة ليحقق لنفسه رغبة طالما تمناها وحلم بها . . وما إن وصل إلى باب المسجد الكبير حتى سمع صيحات عالية ثم قهقهة مرتفعة تصدر من البيت المقابل للمسجد، والتفت السائح الغريب إلى مصدر الصياح والجلبة فرأى امرأة فى داخل البيت منكوشة الشعر، بلهاء النظرات، ملوثة الوجه، تثب هنا وهناك، وتضحك وتصيح وتحاول أن تقلد أصوات الماعز والجمال، ثم القطط والكلاب، ثم تأتى بحركات مضطربة مجنونة، ومن خلفها امرأة أخرى تحاول أن تمسك بها لتهدئها، وتردها إلى صوابها وسكونها وتقول :

– يا أم عمران . . بالله عليك لا تفضحينا وكفى صياحًا وتهريجًا . .

فلا يزيدها هذا الرجاء إلا إصرارًا على الصياح والعبث فتعود إليها المرأة متوسلة من جديد :

– يا أم عمران . . إن المسجد مكتظ بالناس الوافدين من كل مكان . . ماذا يقول عنا القاضى عبد الرحمن بن أبى ليلى؟؟ وماذا يظن الإمام الأعظم أبو حنيفة النعمان؟؟ إنى أضرع إليك

يا أم عمران أن تذهبى إلى الحجرة الداخلية . . ألا تستجيبين لضراعتى؟؟

وأقبلت المرأة نحو أم عمران محاولة أن تستدرجها إلى الحجرة الداخلية فترمقها بنظرات خائفة متوسلة لعلها ترق، لكن أم عمران انتزعت نفسها منها وهى تقول :

- لا أحب هذا السجن الأسود الذى تحبسيننى فيه أيتها القاسية . .

واقتربت أم عمران من باب المسجد الكبير وهى تمشى على يديها ورجليها مقلدة بذلك الشاة فى مشيتها وفى صوتها، فلما رآها أحد المارة على هذه الحالة أفلتت منه ضحكة ساخرة عالية لم يستطع أن يكبتها . فانتصبت أم عمران واقفة، والتفتت إليه وقالت له وعيناها تقدحان بالشرر :

- «يا ابن الزانيين . . » .

وكان العالم الجليل عبد الرحمن بن أبى ليلى- أحد قضاة الكوفة- يدلف فى تلك الساعة إلى المسجد الكبير، فما إن سمع هذا القذف والاتهام الشنيع بالزنا حتى اكتسى وجهه بالشحوب وبان فى عينيه الغضب والدهشة، والتفت إلى أم عمران فرآها تواصل سبابها العلنى فقال الشيخ لمن حوله :

- إلىّ بهذه المرأة . . لقد تفوهت بالفحش من القول، ويجب أن تعاقب على ما اقترفت من إثم . . وسيقت أم

عمران إلى حيث يجلس القاضى عبد الرحمن بن أبي ليلى، فنظر فى أمرها وهو ينعى على هذه المرأة عدم احترامها لحق الآخرين فى الطريق العام، وحرمة المسجد ومن فيه، ومراعاة الآداب الإسلامية العامة، وذلك بالتفوه بتلك الكلمات الجارحة البذيئة، لهذا أصدر الشيخ حكمه، وهو يقضى بإقامة حد القذف على «أم عمران» مرتين لا مرة واحدة، وذلك لأن القذف تناول اثنين لا واحداً وهما والدا المعتدى عليه.

وكان الغريب الوافد من مصر يرقب هذه التطورات فى عجب ودهشة، لكنه تذكر السبب الذى جاء من أجله إلى الكوفة فسارع إلى أحد المصلين وقال:

- أتسمح لى بالحديث معك يا أخا الإسلام؟ إنى غريب نزل دياركم اليوم..

- على الرحب والسعة.. بل نحن الضيوف وأنت رب المنزل، من أى الديار وفدت يا عبد الله؟

- إنى سائح من مصر، جئت أبغى لقاء الإمام الأعظم..

- من تقصد يا أخى المصرى؟

- عجبًا. أهناك إمامان عظيمان فى الكوفة؟

قالها، فرد عليه الكوفى ساخراً: إن الكوفة يا ضيفنا العزيز ملأى بالأئمة العظام. إمام الشيعة، وإمام الخوارج، وإمام أهل السنة، وإمام الـ. فقاطعه المصرى قائلاً:

- لا أقصد.

- ماذا تقصد إذن؟

- الإمام الأعظم أبا حنيفة النعمان.. بطل التسامح والحرية والكرم، وسيد العلماء العاملين فى هذا الزمان.. يا عجبًا.. إن زامر الحى لا يطرب ولا كرامة لنبى فى وطنه.

فهز الكوفى رأسه، وقال مشيرًا بيده:

- هناك فى تلك الحلقة الواسعة يجلس أبو حنيفة، وحوله عشرات من تلامذته.. فيهم أبو يوسف ومحمد والحسن وغيرهم.. أما أنا فمن تلامذة ابن أبى ليلى..

- شكرًا لك..

- الشكر لله..

واتجه السائح المصرى إلى حلقة الدرس التى يتربع فيها أبو حنيفة، وأسرع فى خطوه، والسعادة تغمر كيانه، وتملأ روحه وقلبه وانعكس ذلك كله على وجهه فافتر ثغره عن ابتسامة مشرقة، فقد أوشكت أمنيته أن تتحقق، ولم تكن هذه الأمنية إلا أن يرى أبا حنيفة النعمان، ويحظى بلقائه ومجالسته ومحادثته، قبل أن يودع الحياة بعد أن ذاع صيت الإمام فى مشارق العالم الإسلامى ومغاربه كحامٍ للشريعة وبارع فى فن

الفقه ومدون لبنوده، وكاشف عن أسراره وكنوزه الثمينة، ورائد من رواد الحرية والرأى السليم . .

كانت الحلقة يومذاك فى نقاش حاد، وجدل مصطخب، والإمام أبو حنيفة يستمع لكل الآراء فى هدوء وثبات عجيبين فيقبل على المعارضين والمؤيدين- على السواء- بوجه باش ينقاشهم القضية التى فصل فيها ابن أبى ليلى من دقائق. وأقام فيها حدين اثنين : قضية أم عمران. . وما إن تأهب الإمام الأعظم للكلام حتى خفتت الأصوات وسكن الاضطراب وأصبح الجالسون مجرد آذان صاغية، وعيون محملقة لتتلقف ما ينطق به أبو حنيفة لأنه لا ينطق إلا الحكمة والرأى الراجح المستمد من علمه، النابع من كتاب الله وسنة رسوله، وسيرة الصحابة الأعلام من بعده، وقال أبو حنيفة :

- لقد أخطأ ابن أبى ليلى فى ستة مواضع : الأول أنه أقام الحد فى المسجد ولا تقام الحدود والعقوبات فى المساجد، والثانى : أنه ضربها قائمة، والنساء يضربن قعودًا، والثالث : أنه ضرب لأبى الرجل حدًا، ولأمه حدًا، ولو أن الرجل قذف جماعة كان عليه حد واحد. . أما الرابع فإنه جمع بين حدين، ولا يجمع بين حدين حتى يخف أحدهما، والخامس : أن المجنونة ليس عليها حد، وأخيرًا السادس : أنه حد لأبوين وهما غائبان لم يحضرا فيدعيان .

وأنهى أبو حنيفة كلامه بين دهشة السامعين تكييفًا قانونيًا

رائعًا، فأسرع تلاميذه وسامعوه يدونون هذه الدرر والآيات البالغة قبل أن تتناولها يد التحريف، أو يغرقها غبار النسيان ولكى تكون تراثًا إسلاميًا خالدًا.

أما السائح المصرى فقد أقبل فى لهفة واشتياق نحو الشيخ، وأخذ يصافحه فى شغف ويملأ عينيه من وجهه المشرق وورعه الذى يطل من كل حركة تبدر منه، وفى كل كلمة تصدر عنه وقبل أن يقوم أبو حنيفة من مجلسه أخذ يستفسر عن أصحابه ويبحث عن سبب تغيب بعضهم، وعن صحة المرضى منهم ليعودهم فى منازلهم.

ولم ينسَ أبو حنيفة أن يطلب من الزائر المصرى أن يكون فى ضيافته طيلة المدة التى سيقضيها فى الكوفة، وحينما عادا معًا إلى بيت الإمام، وجداه يموج بالضيوف وذوى الحاجات ولاحظ الضيف أن أبا حنيفة ينفق بسخاء ويؤوى كثيرًا من التلامذة ويعولهم، أولئك التلامذة الفقراء الذين سيكون لهم فى المستقبل القريب شأن كبير، يحسدهم عليه الخلفاء والأمراء والقواد والعظماء..

وأخذ السائح الغريب يرافق الإمام أينما ذهب، وفى متجره الواسع فرأى الشيخ تاجرًا ناجحًا- بزازًا- يعامل الناس فى حسن، ويقنع بالربح المعقول، ولا يعرف مساومة ولا مماطلة رأس ماله صدق وأمانة وقناعة، وعملاؤه من كل مكان..

مكة . . المدينة . . البصرة . . وكان خبيراً فى انفعالات النفوس، ومقتضيات العصر، وفنون العرض، واقعى النظرة فنجحت تجارته وانتعش دخله، لكنه لم يكن يبقى لنفسه ولأسرته إلا ما يكاد يكفيهم ويقوم بأودهم . .

هكذا وقته كان موزعًا بين العلم، والبيع والشراء فى حانوته، والعبادة، وإعطاء أهل بيته حقهم . . واستطاع بذلك أن يوفق بين دينه ودنياه، ويجمع بين العلم والعمل .

ودخل «حماد» على أبيه الإمام أبى حنيفة مكفهر الوجه، وكان فى مجىء حماد ما ينبئ عن القلق والحيرة، ولحظ الشيخ ذلك لكنه بقى هادئًا وقوراً كالعهد به، لا تهزه النكبات . . وأخيراً قال حماد :

- «معذرة يا أبى . . لقد أصدر الأمير اليوم أمراً بعدم تصديقه للفتوى منذ الآن . . » .

وسادت الشيخ موجة من حزن وألم، ولكنه سرعان ما عاد إلى هدوئه، وأشار إلى حماد أن يجمع بعض الأثواب الحريرية المبعثرة فى نواحى الحانوت وينظمها، ويحسن لفها ووضعها فى مكانها المعد لها، حتى تبدو أنيقة حسنة المظهر . . وقام حماد بما أمر به أبوه ثم عاد إليه يقول :

- لِمَ لم تسألنى عن السبب؟؟ فقال الإمام :

- «تكلم» .

- «سأخبرك به . . يظهر أن أبا ليلى قد ساءته الفتوى التى أعلنتها بشأن قضية أم عمران ويظهر أنه وقع فى حرج شديد فبلغ الخبر مسامع أمير المسلمين بالكوفة مشوهًا . . فقرر ألا يتعرض أحد لأحكام قضائه بنقد أو نقض حتى يحفظ للقضاء هيبته وقدسيته كما يزعم . . ولا تنسَ يا أبى أن الأمير يحمل لك شيئًا فى نفسه لأنك تعترض على بعض تصرفاته غير اللائقة» . . فتمتم أبو حنيفة فى ثقة وإيمان وهو يهم بالوقوف :

- «إن الله لا يستحيى من الحق . . » .

وانطلق الإمام خارجًا من حانوته وهو يقول :

- «سمعًا وطاعةً أيها الأمير . . لسوف أكف عن الفتوى حسبما رأيت . . » .

واعتصم أبو حنيفة بالصبر والصمت ، وانتشر خبر قضية أم عمران فى أنحاء الكوفة ، وتعداها إلى البصرة والمدينة وغيرها ، وذاع أيضًا خبر إيقاف الإمام عن الفتيا وأصبح هذا الأمر حديث المجالس والحلقات الدراسية وارتفع قدره فى أعين المسلمين درجات ودرجات ، وجاء السائح المصرى ذات مساء ، وصافح الإمام وقال :

- هأنذا قد عشت فى كنفك أيامًا طيبة كريمة فرد عليه قائلاً :

- «أستغفر الله . . بل أنت فى كنف الله . . » .

وطأطأ المصرى رأسه فى استحياء، ثم قال :

- لعلك لا تتهمنى بالملق يا سيدى الإمام حينما أخبرك بأنك ملأت قلبى وروحى بنور جديد، وبعثت فىَّ حياة جديدة- أن كلامك كأفعالك- يسرى إلى سويداء قلبى، فاستشعر الأمن والثقة والأمل الكبير . .

- «هذا من فضل الله . . » .

- غير أن ما يؤلمنى هو منعك من الإفتاء لأنك أبديت الرأى الحر السليم الذى يرضى الله، ولهذا عولت على الرحيل إلى مصر . . بلادى» .

ولم يكن كلام السائح إلا صدى لما يعتمل فى قلوب أهل الكوفة وغيرهم، فقد داهمهم الملل والضيق، وأحسوا بالفراغ الكبير الذى خلفه الإمام بعد احتجابه عن الافتاء، إن أمثال أبى حنيفة قد يرجحون جيلاً . . بل أمة بأكملها إذا أخذوا بالمعايير الإنسانية .

وظل الإمام يحدث ضيفه وتشعب بهما الحديث عن العلم ورسالة العالم، وكرامته، كان الإمام يقول :

- «خير الكلام- أخى- ما أريد به وجه الله . ومن تعلم العلم للدنيا، حرم بركته ولم يرسخ فى قلبه، ومن تعلمه

للدين بورك له فى علمه، ورسخ فى قلبه وانتفع المقتبسون منه».

فرد الضيف فى حدة قائلاً:

- «لكن يا سيدى الإمام.. أهكذا يعامل رجال العلم وحراس الشريعة، ويمنعون من الفتيا وتصادر حرياتهم؟».

- «لا تغضب.. إن الله مع الصابرين..».

ودخل حماد مهرولاً، وهو يقول فى عجلة:

- «أبى..».

- «ما وراءك يا حماد؟».

- «رسول الأمير يريد لقاءك فى أمر خاص».

قال الإمام مرحبًا:

- «نزل أهلاً وحل سهلاً.. لكن أظن أنه لا داعى لهذا الارتباك البادى على وجهك يا حماد.. دعه يشرفنا..».

وهم الإمام باستقباله والترحيب به، شأنه فى ذلك كسابق عهده فى معاملة كل ضيوفه وتلامذته دون تمييز أو محاباة.. أقبل رسول الأمير، ودار بينهما حديث قصير ووضع الإمام نهاية لهذا الحديث حينما قال:

- لكن أنا محجور عليّ، ولا أستطيع ذلك.

- إذن سأعود لمقابلة الأمير وسأخبره بهذا، وبعد أن خرج الرسول، قال الضيف:

- لعلى لا أكون فضوليًا حيث أسألك عما يريده هذا الرسول..

- أرجو أن يكون خيرًا، لقد أرسله ولى العهد يستفسر عن مسألة فقهية..

- وما هى تلك المسألة؟

- لا أعلم فقد أبيت الفتيا..

- لكن كيف تتركه دون أن تجيب عن سؤاله؟

فابتسم أبو حنيفة وقال:

- وما ذنبى؟ إنى ما زلت محرومًا من حق الإفتاء.

ولم يكد يمضى وقت قصير حتى جاءت إلى أبى حنيفة رقعة مكتوب عليها بخط الأمير وتوقيعه يسمح له فيها بالعودة إلى الإفتاء مع اعتذار رقيق.

وتمتم الإمام فى انفعال جياش:

- ربى ارحمنى يوم تبعث عبادك. وقنى عذابك واغفر ذنوبى يوم يقوم الأشهاد..

رجل فى المنفى

الشام كلها تتحدث عن رجل من أصحاب رسول الله ﷺ، طويل ناحل العود أسمر الجبهة متواضع جسور، يرفع يده عاليًا، يصيح بمعاوية بن أبى سفيان ومن حوله من عظماء وقواد وأغنياء: أن كفوا عن البذخ والبهرج، وهاتوا فضول أموالكم وأعطوها للفقراء، ولا تكنزوا المال، أو تلجئوا إلى الاحتكار، فهو حقد وأنانية ومدعاة لتحطيم أواصر المحبة، وفصم رباط المجتمع، وإثارة الشحناء بين الناس.

ولا يكتفى بذلك، بل يقضى معظم وقته فى المسجد عابدًا ضارعًا إلى الله، وليس على جسده سوى حلة واحدة بالية، يغسلها ثم يلبسها، ويظل قابعًا فى بيته فى حجرة منعزلة خافتة الضوء حتى تجف. وفى المسجد.. كل يوم.. يحوطه جمع كبير من الناس، ولا يفتأ يصرخ بهم فى إصرار وعناد:

- أيها الفقراء . . علمني حبيبي رسول الله ﷺ أن أقول الحق، ولو كان مراً . . أيها الفقراء إن لكم حقًا في أموال الأغنياء، أجل إنه حق وليس تفضلاً، وتصدقًا منهم . . أيها الفقراء . . إن لكم حقًا في أموال الخليفة، وفي أموال أميركم معاوية بن أبي سفيان . . أموال الدولة هي أموالكم، ما جمعها الحكام إلا من أجل رفاهيتكم فتعيشوا حياة هانئة سعيدة. حياة تستحقونها كبشر . . ويتمتم رجلان في آخر المسجد:

- إن أبا ذر يطلق أحكامًا خطرة، ويثير الناس ويحرضهم على معاوية . .

ويرد زميله قائلاً:

- يا له من رجل . . إنه رجل يؤمن بجماهير الناس، وحقها المقدس في الحياة.

- وما ظنك يا أخا الإسلام برجل أسلم على يد رسول الله ﷺ وعاش معه ردحًا طويلاً من الزمن وشرب من نبعه الرباني الصافي، وكان إلى جواره في أغلب الغزوات.

فيرد صديقه:

- صدقت يا أخي . . حقيقة نحن نحب هذا الرجل . . نحس أنه منا . . بل أقرب إلى نفوسنا من معاوية . . بل من الخليفة عثمان بن عفان نفسه . . لكنني أشفق عليه.

ماذا تعنى؟؟

لقد أثار ضجة حول عثمان وتصرفاته فى المدينة فنفاه إلى هنا حاملاً رسالته يحارب جشع الأغنياء، ويريد أن ينتزع حقنا من بين براثن الأمراء، ويحرضنا نحن الفقراء على أن نطلب حقنا ولو بحد السيف.. وما أظن أن الحال سوف تمضى على هذا المنوال.. إن معاوية لن يترك الحبل على الغارب لأبى ذر الغفارى.

وما إن انتهى الرجلان من حديثهما الجانبى حتى كان أبو ذر الغفارى هو الآخر يجفف عرقه، ويستجم بضع لحظات بعد الخطبة النارية التى أحرق بها أذهان أصحاب المال المكنوز وهز بها فى الوقت نفسه مشاعر. الجماهير الغفيرة النائمة عن حقها.. وهدأت ثائرة أبى ذر قليلاً.. وعاد إليه شىء من سكونه، وهدوء نفسه، بينما أخذ الناس ينفضون عن المسجد وصدى كلماته القوية الشجاعة يرن فى آذانهم، ويتردد فى أذهانهم، فيزيل الغشاوة عن عيونهم، ويجسم لهم حقوقهم الضائعة المهدورة.

وانطلق أبو ذر فى أعقاب الخارجين من المسجد، عازمًا على الذهاب إلى بيته حيث تنام ابنته العليلة وزوجته الطيبة الصامتة وعادت إلى ذهنه- وهو يضرب الأرض بقدميه

النخيلتين- ذكرى فتاته البائسة وهى ترقد على حصير بال شاحبة الوجه، غائرة العينين، وشعرها الأسود الفاحم ينسدل فوق جبينها الباهت فى براءة تثير الألم والإشفاق، ومن آن لآخر ينتابها السعال، فتظل تسعل وتسعل حتى تحتقن عيناها، وتنفرط منها الدموع، وتمد يديها المعروقتين الهزيلتين فى ضراعة وابتهال، وتصيح فى خوف ورعب.. أبتاه.. أبتاه وعندئذ اغرورقت عيناه بالدموع، وفاضت نفسه بالحزن والأسىً، لكنه أسرع فمسح دمعة أفلتت من بين أهدابه، وعز عليه أنه ترك ابنته المريضة وخرج، لماذا لم يبقَ إلى جوارها؟ لكنه استعاذ بالله من الشيطان الرجيم، وماذا يجدى بقاؤه إلى جوارها؟ إذا أراد الله شفاءها فسوف تشفى.. وإذا كان الأمير غير ذلك فالمشيئة مشيئة الله.. إن شاء أعطى وإن شاء أخذ.. ولم يدرِ أبو ذر لماذا اقترنت فى ذهنه صورة المرض العضال الذى يهد قوى ابنته، وصورة الجشع الذى يتسم به الأغنياء، فيملأ نفوس الناس عللاً وأحقاداً شتى.. كلها أمراض سواء منها ما ينخر جسد ابنته أو ينخر جسد أمته.. وفكر أبو ذر: «لا شك أن ابنتى عزيزة علىَّ. ومرضها شىء قاسٍ مؤلم يملئونى أسى ولوعة، وكان يجب أن أبقى إلى جوارها لكنى فى الوقت نفسه يجب أن أسعى إلى المسجد.. إلى الله.. وإلى من فى المسجد.. إلى الناس.. إنهم ينتظروننى دائمًا،

كى أفتح عيونهم على الحقيقة ، وأشير بأصبعى إلى حقهم فى الحياة الحرة الكريمة . . إنهم أبنائى هم الآخرون . . وهم أيضًا مرضى مثل ابنتى . . ».

ودلف أبو ذر إلى زقاق ضيق، ورأسه مزدحم بصورة وجوه عديدة تحملق فيه وجوه الذين كانوا يكتظون بالمسجد، ووسط هذه الوجوه الكثيرة . . وجه ابنته الشاحب الهزيل، وعيناها الدامعتان . . وعبر الزقاق كانت تنبعث رائحة الحياة والناس قوية ثائرة . . فالزقاق ممتلئ بالأحياء . . والأطفال الصغار يجرون هنا وهناك، حفاة الأقدام، شبه عراة تثير حركتهم ضجة عالية . . وأصواتهم الرفيعة تشبه إلى حد كبير مواء القطط وهى تعبث وتتباكى، والبيوت واطئة متلاصقة متكدسة وعلى الأبواب وفى الحظائر القريبة أناخت الإبل وبعض الأغنام والماعز . . أين ذلك كله من قصور العظماء التى تشمخ خارج المدينة فى الهواء المنعش، تحوطها الحدائق الغناء، والبساتين التى يفوح شذاها بعبقرى الأريج، وحلو النسمات، يعمرها أقوام يأكلون كثيراً ويشربون كثيراً، وورثوا نعيم الرومان ومراتبهم، وتشبهوا بمجدهم وأبهتهم، واستناموا لدفء الحياة وجمالها وانبساطها . . وبلغ أبو ذر بيته القمىء . . كان السكون يوشحه بوشاح ضاف، والليل يضمه إلى صدره فى حنان وألم . . ونقر على الباب نَقرات خفيفة فسمع صوت

زوجته ينبعث كسيراً حزينًا : (ادخل) فدفع الباب دفعة رقيقة ثم دلف إلى الداخل . . وانبعث من كوة فى الحائط المقابل ضوء واهن من مصباح زيتى مرتجف اللهب ، الصالة ليست فسيحة لا يفرشها إلا الحصى ، وإلى بعيد إناء به ماء يبلل ما حوله من حصى ، وشاة عجفاء تمضغ الصمت والفراغ والليل الطويل ليس فى فمها شيء تغتذى به ليتسرب منها اللبن وبلغ الحجرة التى تنام فيها ابنته المريضة .

كانت امرأته كابية حزينة ، قد جلست القرفصاء ، مسندة ذقنها إلى قبضة يمناها المرتكزة فوق ركبتيها وعيناها الساهرتان المحاطتان بهالة زرقاء تتركزان على وجه ابنتها الشاحب المغمض العينين :

- هل جاء أبى؟

قالتها الفتاة المريضة ، وهى تحاول جاهدة أن تفتح عينيها بينما قال أبوها فى نبرة حنان صادق :

- أجل جئت يا حبيبتى . .

- أهكذا تتركنى يا أبى؟ لقد كنت أبكى من أجلك . .

- أنا ما تركتك يا حبيبتى . . كنت فى بالى دائمًا . . أردت أن أؤدى الصلاة ، وأسمع المصلين الدرس اليوم ثم لأدعو لك

الله كي يمن عليك بالشفاء . . لا تجهدى نفسك بالكلام والبكاء يا ابنتى حتى لا تنتابك موجة السعال . .

- آه يا أبى أحس أنى أمــــوت . . أنا لا أخـــاف الموت يا أبت . . فحبيبى محمد عليه الصلاة والسلام قد مات كما حدثتنى أنت فى الليالى الطوال، ولكنه يعز عليّ فراقك وفراق أمى . . وأجهشت الأم بالبكاء، بينما كظم أبو ذر أساه متجلداً وقد تبللت عيناه بالدموع، وأمسك بيد زوجته :

- ماذا أصابك يا امرأة؟

وجمدت الدموع فى العيون، حينما توالت دقات قوية متلاحقة على باب البيت، وصاح أبو ذر وهو يغادر الحجرة :

- من بالباب؟

- أنا رسول أمير المؤمنين معاوية بن أبى سفيان . . الأمير يدعوك لأمر عاجل . .

كان معاوية يجلس مفكراً ساهمًا، يرن فى أذنه ذلك الضجيج والضوضاء التى جلبها عليه أبو ذر . .

الشام بقراه ومدائنه يتحدث عن الصحابى الجليل الذى يتحدى الأغنياء، ويحرض الفقراء، يتحدثون عن الرجل الذى يدعو إلى ثورة فى الأخلاق والقيم، وثورة فى تنظيم

المال وتوزيعه، ويعيش كما كان أيام الرسول. . زاهدًا حرًا. . يقول كلمة الحق ويفنى فى سبيلها، لا تطويه ظروف العصر، ولا مقتضيات الشام وأساليب حكمها. . لكن معاوية يريد شيئًا غير ذلك، أن يدين الناس له بالولاء، ولا يرفعون فى وجهه راية العصيان أو يعترضون على نظامه المالى والسياسى. لا يرى مانعًا أن يثرى الأثرياء، ويتضخم الثراء، ويستمتع الناس بما لذ وطاب من طعام وملبس ومباهج دنيوية، والفقر فى نظره ظاهرة طبيعية توجد فى كل عصر ومجتمع. . والناس دائمًا أغنياء وفقراء، واحد من اثنين هذا أو ذاك. .

أما أبو ذر فلا يرى ذلك، إنه يؤمن بأن يتقشف الأغنياء وينزلوا عن شىء من أموالهم، رغبة أو رهبة لغيرهم من خلق الله الذين لم يؤتوا حظًا من سعة، فيصير الفقر المدقع بعض سعة، ويصير الغنى الفاحش ثراء معقولاً. . وأدرك معاوية أو خيل إليه أن مبادئ أبى ذر وأفكاره قد تؤدى إلى هزات عنيفة تصيب ملكه بالعطب وتصيب المجتمع بالخلل والفوضى. . وعول على أن يأخذ أبا ذر بالشدة والعنف لعله يترك الأمر للحاكمين ويكف عن إثارة القلاقل، وتحريض جماهير الناس، كيف تمتد يده إلى رجل صحابى، عالى المركز، ذائع الصيت، اصطفاه الرسول ﷺ وقربه إليه وأثنى عليه، ووعده بالجنة ناهيك بما يكنه له الناس من توقير واحترام يعلو على

احترامهم لمعاوية، وتوقيرهم له . . ومن ثم فلم يكن هناك من طريق سوى طريق الرقة واللين والتفاهم . .

أما أبو ذر فقد غذ السير صوب دار معاوية بعد أن تخلص بلباقة من ابنته التى كانت تتشبث بأذيال ثوبه، وتضرع فى حرارة: لماذا تتركنى يا أبتاه؟ أتذهب وتترك ابنتك التى تتلوى وتوشك أن تموت؟ إن طاعة الأمير واجبة، ومن يدرى ربما طلبه معاوية ليستشيره فى شأن من شئون المسلمين، أو يأخذ رأيه فى معضلة فقهية أو حكم من الأحكام، فكيف يتراخى أبو ذر عن دعوة الأمير، أو يتكاسل عن خدمته من أجل المسلمين، إنه بالأمس جندى من جنود الرسول ثم أبى بكر ثم عمر واليوم هو جندى مكافح من أجل أمته الكبرى وجماهيرها الغفيرة التى أصبحت تملأ السهل والجبل، وتمتد من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب، وتشرق وتغرب إلى مسافات شاسعة، وتؤمن بالله ونبيه، والحق الأبلج الذى غمر الدنيا بالنور والحياة والخير . لكنه فى الوقت نفسه لم يستطع أن يبعد عن ذهنه صورة الوجه الشاحب المرتخى الجفون، واليد الواهنة المعروقة التى تمتد إليه فى ضراعة، وتتشبث بأذيال ثوبه . .

ودخل أبو ذر على معاوية وأصابع الألم الخفية تتحسس قلبه الحزين، ونفسه مرتع لكثير من المتناقضات التى يحاول جاهداً أن يصرفها أو ينحيها بعيداً، وهو يتمتم بآيات من

القرآن الكريم، وبعض الأدعية التى حفظها عن صاحبه وحبيبه محمد ﷺ.

وقام معاوية إليه يحييه، ويظهر له من ضروب التكريم والتحية ما لم يكن يخطر على بال، وذهل أبو ذر وهو يرى الرجل الذى يعارض سياسته، ويحمل على تصرفاته يقابله هذه المقابلة الودية، ويبالغ له فى الترحيب حتى أن أبا ذر لعن بينه وبين نفسه أولئك الذين يحملون إليه تبرم معاوية منه، ونفوره من سلوكه وتحريض الناس عليه..

وأفسح له معاوية مكانًا إلى جواره، ورق له فى الحديث، وسأله عن حاله، وتشعب بهما الحديث إلى الماضى.. إلى الذكريات الحلوه النابضة بمعانى الحب والنضال، والآمال الكبار، حتى إذا أنست نفساهما، وسقطت بينهما الكلفة، صفق معاوية بيديه، فأقبل الخدم يلبون النداء، ويقدمون فروض الطاعة والولاء، وما هى إلا لحظات حتى وجد أبا ذر خوانًا ممدودًا عليه كل ما لذ وطاب من الطعام والشراب، ورائحة الطعام والشواء يتحلب لها الفم، ومنظرها المغرى يحرض الرغبة فى الأكل، ويثير إحساسًا بالجوع، كان منظر الخوان شيئًا جديدًا على أبى ذر الزاهد المتقشف لم يرَ مثله طول حياته. دار بعينيه متفحصًا ما حوله بنظرات ذاهلة.. أرائك فخمة ثمينة ذات ألوان.. وستارة حريرية تهتز هزات خفيفة مع النسيم الهادى وخوان طويل عليه

ألوان من الطعام . . وعلى الفور وثبت إلى ذهنه صورة القصعة والماء والثريد ولبن الشاة العجفاء . . وقليل من التمر فى مخلاة . . وآلاف الفقراء يمضغون لقيمات جافة كى تقيم أودهم، وتعينهم على مشاق الحياة . . ثم الفتاة الناحلة الشاحبة ذات اليد المعروقة التى تنام على حصير مهرأة . . ونوبات السعال ترعش جسدها الضامر، وتهز عودها النحيف هزًا عنيفًا لا رحمة فيه ولا هوادة، وهمت أن تنفرط من عينيه الدموع، لكنه- كعادته- لم يسمح لها أن تنهمر .

كان قويًا عند الشدة، صامدًا إذا ما هبت النكباء . . شامخًا جبارًا أمام التحريض والإغراء . . ساخرًا زاهدًا إذا ما لوحت له الدنيا بالمادة . . المادة الفانية التى لا تعرف الخلود . . وأدرك معاوية ما يعانيه أبو ذر من شرود واضطراب وتفكير، فابتسم معاوية وقال فى رقة دون أن يدرى تمامًا ماذا يعتمل فى داخل رأس ضيفه :

- تفضل الطعام جاهز . .

وامتلأت نفس أبى ذر حنقًا بالغًا، ماذا يريد معاوية بذلك؟ أهو مجرد الواجب الذى يؤديه المضيف لضيفه أم هو تقدير لشخص فى صورة الطعام الدسم الشهى أم هى رشوة يريد أن يسد بها فمى، ويلوح لى بالنعيم المقبل إن أنا امتثلت لأوامره،

وكففت عن مهاجمة نظامه المالى الفاسد وسوء توزيع الثروة بين جماهير الأمة؟؟

كظم أبو ذر غيظه، وكبت انفعالاته التى تريد أن تنطلق فى تمرد وثورة، وقال فى نبرات مرتعشة يحاول جاهداً أن يجعلها طبيعية لا أثر للانفعال أو التوتر فيها :

- أكلت وحمدت الله . . وما بى جوع وظمأ الآن . .

- لكن هذا الطعام من أجلك يا أبا ذر، وليس من اللائق أن ترد ضيافة الأمير وتخاصم طعامه . .

- ربما تكون محقًا فيما تقول، لكن أوقن أن آلافًا غيرى فى حاجة إلى كسرة خبز تسد جوعهم . . أحس وأنا آكل هذا الطعام كأنى أسرقه منهم . .

وتغيرت سحنة معاوية، وبان فى عينيه شىء من العتاب والنصيحة لكنه أردف قائلاً :

- ماذا تقصد يا أبا ذر؟؟

فرد عليه فى لهجة صريحة واضحة :

- طعامى كل جمعة صاع من شعير على عهد رسول الله ﷺ، والله لا أزيد عليه شيئًا حتى ألقاه . .

- لكن يا أبا ذر أنت تعلم أن الله لم يحرم علينا الطيبات من الرزق . .

وفكر أبو ذر فيما قاله معاوية، إنه حق لا شك فيه، لكن التفاوت الشنيع بين أقوام لا يجدون شيئًا وأقوام يجدون كل شيء من مأكل وملبس ومشرب . . إنه أمر مزعج لا شك فيه كثير من أنانية، وفيه ظلم صارخ لا شك فيه، وقال أبو ذر :

- لقد تغيرتم كثيراً يا معاوية، تنخلون الشعير، وتخنزون المرقق، وتجمعون إدامين ويختلف عليكم بألوان الطعام، وغدا أحدكم فى ثوب وراح فى ثوب آخر ولم تكونوا هكذا فى عهد رسول الله ﷺ . .

فقال معاوية وقد نفد صبره :

- لقد انقضى ذلك يا أبا ذر ونحن هنا فى بلد الأعاجم فإن لم نظهر أمامهم بالمظهر اللائق استخفوا بنا . .

فابتسم أبو ذر فى مرارة وقال :

- هذه مظاهر جوفاء، ورأى لا أرتئيه، انظر كيف فتحنا الديار وملكنا دنيا القياصرة والأكاسرة، لم نصل إلى ذلك بالمظاهر التى تتحدث عنها من حديث الطعام والشراب، وإنما أتينا إليهم جياعًا فقراء . . فليس المتواضع من الثياب، ونتبلغ بثمرات أو لقيمات . . نحمل فى كفة كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ وفى الكفة الأخرى سيفًا . . نحطم به عروش الظالمين، ونعيد إلى الأمم المهضومة المظلومة حقها فى الحياة الحرة

الشريفة . . وفى لقمة العيش وحرية العقيدة . . لقد حولنا القطعان البشرية الضالة إلى آدميين شرفاء كرماء . .

الطعام لم يزل متراصًا على الخوان، ورائحته النافذة قد نامت أو كادت وألوانه الزاهية الجذابة قد انطفأت، وخيل إليهما أن ما أمامهما ليس طعامًا وإنما سم زعاف، وقطع معاوية الصمت حينما قال :

- يا أبا ذر لم تزل كلمة الله هى العليا وكلمة الذين كفروا السفلى، والرسول ﷺ ذلك الإشعاع الربانى المضىء سوف يبقى دائمًا الهادى إلى طريق الحق والنور والمعرفة هذه حقيقة يجب أن أؤكدها . . لكن لكل منا فهمه الخاص، ونظرته الخاصة إلى الأمور . . غير أن الذى يزعجنا حقيقة به أبا ذر هو أنك تؤلب الفقراء حتى ضج الأغنياء وشكوا أمرك إلينا لأنك تهدد مصالحهم بالبوار والخراب .

فسارع أبو ذر قائلاً :

- إنى أنهاهم عن الكنز . .

- ولم؟

- لقوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة : ٢٤] .

- إن هذه الآية نزلت فى أهل الكتاب . .

- بل نزلت فينا وفيهم . .

ثم استأنف أبو ذر وهو أشد ما يكون صرامة وعنفًا :

- ووالله لأستمرن على دعوة الناس إلى الزهد . . وعلى تحذيرهم من الكنز . . ولأبشرن الكانزين بعذاب النار .

وعاد معاوية إلى الرقة واللطف قائلاً :

- خير لك أن تنهى عما أنت فيه .

- والله لا أنتهى حتى توزع الأموال على الناس كافة . . فقال معاوية مهددًا :

- يا أبا ذر هذا فراق بينى وبينك . . فحاذر . .

فقال أبو ذ وهو يهم بالوقوف :

- ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا ﴾ [التوبة : ٥١] يزعم قوم ويقولون : «إن المال مالنا والفىء فيئنا . . فمن شئنا أعطيناه ومن شئنا منعناه . . » .

كلا . . فالمال مالنا والفىء فيئنا . . فمن حال بيننا وبينه حاكمناه إلى الله بسيوفنا . .

صيحات قوية رنانة اهتزت لها جنبات المكان وأرقت أمن معاوية حتى خيل إليه أن هذه الصيحات القوية إذا خرجت من

أروقة قصره إلى الشارع وتلقفتها أسماع الناس وترددت على ألسنتهم فسوف تندلع ثورة. ثورة الجياع والفقراء الذين يؤمنون بأن لهم حقًا عند معاوية وعند الأغنياء وإذا لم يعد لهم هذا الحق حاكموه إلى الله بسيوفهم، والسيف حكمه خطر رهيب لا تؤمن معه العاقبة. . ونادى معاوية الخدم. .

- ارفعوا هذا الخوان ما بى رغبة فى الطعام، كان معاوية يفكر بينه وبين نفسه أن أبا ذر رجل طاهر الذيل، نقى السريرة أبيض الصفحة لكن وسيلته جافة مزعجة. . يقول الكلمة على ملأ من الناس ويحلم بمثاليات مغرقة فى الخيال لا يمكن تحقيقها على نحو ما يرى، ولا على الصورة التى يتمناها أبو ذر إنه يريد أن يفرض مثاليته الحالمة على عامة الناس فى مجتمع يريد أن يبنى كل فرد فيه مجده وينال أقصى ما يستطيع من نجاح.

إنها معركة كبرى لا تقل ضخامة عن المعركة التى قادها محمد ﷺ ضد قوى الجاهلية والشرك والتقاليد المتأصلة فى المجتمعات التى أعاد الإسلام بناءها، ومعاوية لا يرى هذا الرأى ولا يقره فكيف تستقيم الأحوال وسط هذا الصراع. وتنتظم الأمور فى ذاك الجو المشحون بالتحريض والثورة والقلق. . وأحضر معاوية دواة وقرطاسًا وقلمًا، وجلس يسطر لأمير المؤمنين عثمان بن عفان رسالة موجزة أودعها كل ما يريد أن يقوله:

- «أما بعد . . فإن أبا ذر تجتمع إليه الجموع، وقد ضيق عليّ واعضل بى ولا آمن أن يفسدهم عليك . . فإن كان لك فى القوم حاجة فاحمله» .

لن يكون الأمر سهلاً، فعثمان قد نفى أبا ذر من قبل إلى الشام، وها هو معاوية حاكم الشام يضيق به ذرعًا ويريد أن يعود أبو ذر من حيث أتى فهل يستدعيه عثمان مرة أخرى؟ ويتصدى هو لصيحات أبى ذر من أجل الفقراء، ويتلقى هجماته ويتحمل مضايقاته حتى يدع الشام ومعاوية فى دعة وسلام قبل أن تنبت بذور الثورة والتمرد ضد معاوية .

أما أبو ذر فقد خرج من مسكن معاوية وآثار الثورة العارمة التى اجتاحت كيانه تلهب فؤاده وترعش جسده، وخطواته المسرعة التى تطأ الصمت والظلام . وخفق قلبه وهو يدخل بيته خفقات سريعة متلاحقة وهو يدنو من الباب . ودلف إلى باحة البيت الصغير وقصد من فوره إلى الحجرة الضيقة التى ترقد فيها ابنته العليلة، ووقع بصره عليها ترقد ساكنة لا حركة ولا نفس، وقابلته أمها بالشهقات والدموع ومن بين شهقاتها ودموعها انبعث صوتها الواله الحزين : ماتت . . ماتت .

كانت الفتاة مسجاة وكلب يعوى من بعيد عواء كالأنين

والشاة العجفاء تمضغ السكون والليل . . لا شيء في فمها وضوضاء صاخبة في رأس أبي ذر المصدوع، وشيء غامض يقطع في قلبه . . وفي روحه الشفافة بسكين لا تبين، وهمّ أن يتكلم لكنه لم يستطع فقد غص صوته بالدمع . الفتاة مسجاة، وحزن عميق يلف الدار الكابية، وتمتم أبو ذر أخيراً : إنا لله وإنا إليه راجعون . . صدق رسول الله ﷺ : «إنما يولدون للموت ويعمرون للخراب» . . ونامت العيون وبقيت عينا أبي ذر وزوجته تذرفان الدموع وأيديهما ترتفعان إلى السماء في ضراعة وابتهال .

ولم يكد يمر وقت طويل حتى جاء رد عثمان على رسالة معاوية يقول : جهز أبا ذر إليّ، وابعث معه دليلاً، وزوده وارفق به وكفكف الناس نفسك ما استطعت .

وفي قافلة صغيرة تنحدر نحو الجنوب . . كان أبو ذر في طريقه إلى المدينة ليبدأ جولة جديدة . . كان يدور في خلده كلمة الرسول عليه السلام له ذات يوم : «يا أبا ذر إنك رجل صالح وسيصيبك بلاء بعدي» .

❑❑❑

على أبواب دمشق

كان الشيخ عابس الوجه متجهم النظرات وكان يحرك يديه، ويعبث بأصابعه فى عصبية ظاهرة لم تخف على الجالسين، وران على الجالسين صمت رهيب عميق، صمت يجلله الحزن، ويخالطه الألم الممض، وأرسل الشيخ تنهيدة من الأعماق، وقد تخضلت عيناه بالدموع.

لقد طافت بذهنه ذكرى دامية سوداء.. يا لها من ذاكرة. إن كل أحداثها منقوشة فى قلبه بحروف بارزة ملتهبة.. تذكر الشيخ ما حدث له منذ ثلاثين عامًا أو تزيد حينما كان طفلاً صغيرًا... كان التتار آنذاك قد هبوا كالإعصار الساحق المدمر من الشرق.. فتركوا المدن والقرى تشتعل فيها النيران وأقاموا من جماجم القتلى أهرامًا عالية... وجرت أنهار الدم فى كل مكان، فتلوثت الطرق باللون الأحمر المروع، ثم تذكر الشيخ أباه العالم... وأمه وباقى أفراد أسرتهم وهم يولون الأدبار مع الملايين غيرهم ممن يخافون الموت ويتعلقون بأهداب الحياة

أمام طوفان التتار المتوحشين الذين لا يرحمون . . وتذكر نفسه طفلاً ضئيلاً نحيلاً . . تبرق عيناه الصغيرتان فى خوف وقلق وتساؤل : «لماذا نهرب ونترك أرضنا ومنازلنا يا أماه . . ؟؟» ولم يكن يجد إجابة لتساؤلاته الحائرة سوى صيحات الرعب، ونظرات الهلع التى كانت جلية على وجوه الجماهير ولم يكن يسمع غير كلمة واحدة تحمل فى ثناياها كثيراً من الأسى والجزع، وتقترن بالموت، والدم، والطغيان «التتار . . . التتار . . . التتار . . .».

وجفف الشيخ دمعة أوشكت أن تتسلل من بين أهدابه خفية، ولم لا يحزن الشيخ؟؟ إن المأساة التى كانت منذ أكثر من ثلاثين عامًا قد بعثت من جديد اليوم، وها هو ذا «فازان» يدق أبواب دمشق ومن خلفه التتار كالذئاب الجائعة يسيل لعابهم لالتهام الفريسة، والناس يفرون من دمشق حبًا بالحياة، والاضطراب والفوضى قد ضربا أطنابهما فى كل مكان، ووسط هذه الظلمات المدلهمة أضاءت بارقة أمل. فافتر ثغر الشيخ عن ابتسامة مقتضبة سرعان ما أخفاها، واتخذ وجهه سمت الجد مرة أخرى . . ألا يحق للشيخ أن يشعر ولو بقليل من السعادة حين يتذكر ما تناقلته الأنباء وتحدثت به الركبان، وهو أن السلطان الناصر -سلطان مصر- فى طريقه إلى الشام لإنقاذها من يد التتار والمحافظة على دمشق التى توشك أن تقع لقمة سائغة فى أيديهم، لقد أصبح

جيش ناصر أملاً تخفق حوله أرواح العرب والمسلمين. وتنتظر على أيديه الخلاص والنصر..

وظهر الارتياح على وجه الشيخ -وهو أحمد تقى الدين بن تيمية- وقال فى نبرات واثقة واضحة:

- «أتدرون فيم تنحصر مشكلة اليوم..؟».

واتجه إليه الجالسون بنظراتهم المستفسرة وكانوا موقنين أن الشيخ أحمد ابن تيمية يأتى دائمًا بالجديد من الرأى، فهمس أحد الحضور قائلاً:

- «المشكلة هى مشكلة هذه الوحوش الآدمية التى تتربص بنا الدوائر خارج دمشق وتتلمظ كالأفاعى القذرة لامتصاص دمنا..».

فهز الشيخ أحمد رأسه ثم قال:

- «كلا يا أخى.. ليس التتار هم ما أعنى».

- «إذن فماذا يقصد أستاذنا..؟؟».

- «أقصد أن فرقتنا هى أساس كل بلاء، ومصدر كل هزيمة..».

وصمت الشيخ برهة، ثم استطرد قائلاً فى لهجة حزينة آسفة:

- «انظروا تجدوا المسلمين قد انقسموا إلى حكومات محلية منعزلة متناحرة، وأحصروا المذاهب الفقهية والسياسية التى مزقت شمل العرب.. ولا تنسوا الصراع الرهيب بين الأمراء والبيوت الحاكمة من أجل الوصول إلى الحكم ولو على الأشلاء.. فلا تعجبوا إذن إذا ما احتل الصليبيون أجزاء من الشام.

ورفع الشيخ أحمد يده ليجفف العرق الذى أخذ يتقاطر على جبهته ثم قال وهو يعبث بشعر لحيته:

- «ويكفى علماءنا وطوائفنا ما هم فيه من منافسات ومناقشات لا طائل تحتها ولا هم لهم إلا الغلبة فيها.. الغلبة الرخيصة...».

فرد أحد الجالسين:

- «لعل الشيخ يقصد ذلك المأجور الحاقد الذى وسمه بالخيانة ليشوه سمعته فكان جزاء المأجور أن قطعت يده، وأخذ بكذبه..

فابتسم الشيخ قائلاً:

- ليس الحديث عن الأمور الشخصية... ما قصدت ذلك... وإنما أتكلم عن الموقف العام..

وقطع الشيخ أحمد ابن تيمية حديثه فجأة ثم هب واقفًا وقال :

- أما يزال سكان دمشق يواصلون الفرار منها . . . ؟

- ولم يا سيدى الشيخ؟ إن نائب السلطنة نفسه . وكبار رجالها قد ولوا هاربين . .

وأدرك الشيخ أحمد ابن تيمية خطورة الموقف ، وكُنه الأزمة التى توشك أن توقع به الضرر الجسيم ، إنه المسئول عن كل هذا فهو يُعد ملكًا غير متوج فى دمشق لعلمه وشجاعته ، ولتعلق العامة به وثقتهم به ، يجب أن يعمل عملاً حتى يقف التيار المتخاذل . . يجب أن يخطب ويدعو الناس إلى الثبات والاستشهاد ، لقد هزم التتار منذ ثلاثين سنة . . والتفت الشيخ أحمد إلى أصحابه وقال :

- أريد مناديًا ينادى فى المدينة . .

- نحن على استعداد . . لكن بماذا ينادى؟؟

- يقول : يا أهل دمشق . . لا يسافر أحد إلا بمرسوم . .

- أتعتقد يا شيخنا أن ذلك كافٍ لمنعهم من الهرب . . ؟

- سنحتاط لكل شىء . . الحراس المحيطون بالمدينة سيكونون متيقظين ، أما أنا فأنزل إلى شوارع المدينة وأسواقها

ومساجدها وأدعو الناس إلى الجهاد والاستماتة فى الدفاع عن ديارنا وعقيدتنا.

وانطلق أحدهم لينفذ أمر الشيخ فى الحال وفرك الشيخ أحمد يديه فى ارتياح وقال:

- بقى أن يصل جيش مصر إلى دمشق، وبعد ذلك نستطيع أن نضمن النصر بإذن الله..

فقال أحد الجالسين:

- المعركة يا شيخنا معركة صبر. يجب أن نصبر حتى يصل الناصر بجيشه..

فأجاب الشيخ:

- أى صبر تعنى والتتار يهجمون كالبرق الخاطف ويتحركون بسرعة فائقة حتى يباغتوا أعداءهم، يجب ألا نكون كالسلحفاة، يجب أن نسارع فى تكتيل الجهود..

وفى هذه اللحظة دخل شرف الدين -وهو شقيق الشيخ أحمد ابن تيمية -وقال فى انفعال وعجلة:

- يا أخ أحمد.. هناك رسول قادم من مصر الآن.. فقال الشيخ:

- أين هو؟؟

- وكان متعبًا مكدودًا من طول السفر ، وقد هيأت له زادًا وماء ليصيب قليلاً من الراحة .

- عليّ به الآن . . لا . . لا سآتى أنا بنفسى إليه . .

وخرج الشيخ هو ومن معه وأمامهم شرف الدين قاصدين المكان الذى نزل فيه الرسول القادم من مصر ، وهتف الشيخ أحمد ابن تيمية حينما رأى الرسول :

- السلام عليك يا أخا الإسلام . . . ما وراءك من أنباء؟؟

فأجاب الرسول وهو يزدرد بعض الطعام :

- عليك سلام الله . .

ثم تناول جرعة ماء ، ونظر إلى الشيخ فى اكتئاب وألم ، فقال الشيخ فى حدة مكظومة :

- ماذا وراءك؟؟ . . تكلم . .

فقال الرسول :

- تمنيت أن يقطع لسانى حتى لا أنبس ببنت شفة .

- بل الشر المستطير يا سيدى الشيخ .

- سامحك الله أيها الرسول . . قل فالله أرحم بنا من أن يضيعنا . .

فصمت الرسول لحظة ثم قال :

– لقد انهارت آمالنا يا سيدى الشيخ . . إن جيش مصر قد رجع إلى القاهرة ، والسلطان ناصر الدين آثر السلامة ، وعاد تاركًا الشام تحت رحمة الأقدار .

فزمجر الشيخ ، وقد جللت وجهه سحابة من الحزن الخانق :

– آثر السلامة؟؟ هذا هراء . . إن التتار لن يأكلونا وحدنا . . نحن اليوم ، ومصر غدًا . . لن يرحمونا أبدًا . .

فقال الرسول مرتجفًا :

– إن ناصر الدين يخاف المتآمرين على عرشه وما أكثرهم . . كل أمير من أمراء المماليك يتربص بالآخر الدوائر ، ويمكن لنفسه ويشترى الأتباع . . لقد انغمسوا فى مطامعهم الشخصية الضيقة ، لكن فى اعتقادى أن هذه الحال لن تدوم . .

كان الشيخ أحمد ابن تيمية يستمع لحديث الرسول وهو فى حيرة من أمره ، لقد كان لنبأ رجوع الجيش المصرى إلى القاهرة وقع الصاعقة عليه وعلى أصحابه ، وسيعرف الناس ولا شك نبأ هذه الكارثة ، وستنهار الآمال التى بنوا عليها القصور . والآن ما العمل؟ هل يستسلم؟؟ هل يستسلم ابن تيمية؟ إن الفرقة والأطماع الفردية والطاغية تكاد تجنى على الأمة . . يا

للكارثة . . لا . . لن يستسلم ابن تيمية . . وكيف يلقى الله وقد تقاعس وتكاسل؟؟

ثم قال لمن حوله :

- عليَّ بقرطاس وأقلام ورسول . . أسرعوا أسرعوا . .

ولم ينسَ الشيخ أحمد ابن تيمية فى كتابه إلى الناصر سلطان مصر أن يقول فى قوة وإصرار :

« . . وإن كنتم أعرضتم عن الشام وحمايته أقمنا له سلطانًا يحيطه ويحميه ، ويستغله فى زمن الأمن ، ولو قدر أنكم لستم حكامه ولا ملوكه واستنصركم أهله وجب عليكم النصر . فكيف وأنتم حكامه وسلاطينه . وهم رعاياكم وأنتم مسئولون عنهم؟؟ . . » .

لكن الموقف يزداد سوءًا .

والقلوب مضطربة واجفة . .

والنفوس حيرى لا يقر لها قرار .

والتتار يتسلون بالسلب والنهب ويتلذذون بمنظر الدماء والأشلاء .

والأزمة قد بلغت القمة من التعقيد والتشابك . .

ووسط هذا الخضم المضطرب تحاك الدسائس وتدبر

المؤامرات للقضاءعلى ابن تيمية غيرة وحسدًا، وبعض الخونة يعاونون الأعداء ماديًا ومعنويًا، والآلام تتفاقم حتى بات الناس قاب قوسين أو أدنى من الهزيمة والموت والضياع . .

هل كانت الأقدار تنتقم من أولئك العرب الذين تمادوا فى عبثهم، وانشغلوا بعلاقاتهم المذهبية والسياسية يا للعار . . إنهم مثل الأسرة الواحدة التى يتنازع أفرادها على المتاع التافه واللصوص يحيطون ببيتهم استعدادًا للانقضاض . . إن المصائب تجمع المصابين، فلم لا يتيقظ العرب ليروا واقعهم المر الأليم؟؟ القلق والخوف . . كلها تبسط رواقها فى كل مكان .

تجمعت السحب، وتوثبت العواصف الهوج ولم يبقَ إلا لحظة الانفجار، وعادت الأسطورة القديمة «أن التتار لا يهزمون»، وإن كان فى الإمكان هزيمتهم فهل يكون ذلك على أيدى الدمشقيين المساكين . . هذا بعيد الاحتمال . . بل لعله مستحيل .

لكن ابن تيمية لم يهدأ، لم يكف عن الدعوة إلى الجهاد ومراسلة ناصر الدين سلطان مصر، عله يستجيب لرجائه .

ونادى منادٍ فى أرجاء دمشق . . وأردف الناس أسماعهم لما يقول :

يا أهل الشام . . يا سكان دمشق . . يا رجال العرب . . إن

جيش ناصر الدين فى طريقه إلى نجدتنا من جديد . . الله أكبر . . الله أكبر .

لقد استجاب ناصر الدين مرة أخرى لنداء العروبة والدين والمصلحة ، وهب من خلفه أبناء مصر للكفاح . . ابتسمت الأقدار مرة أخرى؟؟ يا للحظ السعيد . . لك الحمد يا رب . . لقد تجدد الأمل . . هذا ما تمتم به ابن تيمية .

ولم يكد النبأ يذاع حتى عدل التتار عن هجومهم على دمشق فى عامهم ذلك ، حتى يزدادوا استعدادًا لوثبة أخرى لا يعلم إلا الله متى تكون ، لكن هذا كان كافيًا لأن يرد إلى الناس الأمان ويزرع فى قلوبهم الأمل من جديد . .

الأفراح تقام . . والألحان السعيدة تتجاوب فى أرجاء دمشق . . والموتورون المتآمرون يثوبون بآلامهم وأحزانهم وغيظهم ليتواروا عن المواكب الهاتفية الشادية بالنصر والسلام والأمل .

فى رمضان عام ٧٠٢ للهجرة ساد التوتر والقلق أرجاء دمشق من جديد ، فقد عاد التتار ليقضوا على البقية الباقية من الدول الإسلامية . المعركة هذه المرة فاصلة فالتتار مصرون على المضى إلى الإمام . . لكن جيوش مصر والشام واقفة متحفزة .

ووقف ابن تيمية وسط الجنود ، يلوح بسيفه ويقول :

- إنكم ملاقو العدو . . والفطر أقوى لكم . .

فيرد أحدهم قائلاً :

- كيف نفطر يا شيخنا فى رمضان؟

- إنها الحرب يابنى . . نحن لا نبتدع . . هكذا فعل الرسول . . غداً تسيل الدماء خارج دمشق فى (شقحب)[1] . . غداً أمر عصيب . .

وصاح شيخ بجواره فى ألم :

- إن التتار عدد لا يحصى . . وخيولهم كالشياطين المسرجة . .

فزجره الشيخ أحمد ابن تيمية قائلاً :

- أقسم إنكم لمنصورون .

- أتقسم يا ابن تيمية؟ . . لا يعلم الغيب إلا الله .

- صدقت . لكن الله قد وعدنا بالنصر إذا ما اتخذنا لكل شىء عدته ، وزدنا يقيناً وإيماناً واستمساكاً بمبادئنا الخالدة .

كانت المعركة حامية الوطيس وكثر القتلى والجرحى الذين غرقوا فى أمواج الدماء وابن تيمية ينادى ويحرض على الجهاد والخونة يحاولون معاونة الأعداء . . إنها الطعنات التى توجه

(١) شقحب : عين ماء جنوب دمشق بعد الكسوة ، على يمين الذاهب إلى حوران .

من الخلف . . الموقف يتأزم والحرب سجال وإذا صوت من الميمنة ينادى :

-الله أكبر . . إن العدو يتقهقر . .

صراع عنيف . غبار مثار اختلط فيه الحابل بالنابل ولحظات حرجة رهيبة ، أترى تتحقق المعجزة من جديد ، وينتصر العرب كما انتصروا منذ ثلاثين عامًا؟ وإذ بهاتف من الميسرة ينادى :

- العدو ينحاز إلى الجبال موليًا الأدبار .

فيصيح ابن تيمية :

- لا إله إلا الله صدق وعده . . ونصر عبده وأعز جنده . . كروا خلفهم . . الحقوا بهم إلى الجبال والشعاب .

أيام قلائل ، صفا الجو بعدها ، وانجلى غبار المعركة عن نصر مؤزر للعرب وانحدار أيدى التتار . . وهمس شيخ صديق فى أذن ابن تيمية :

- لقد بلغت مناك يا ابن تيمية . .

- كلا . . المعركة الحقيقية لم تنته بعد . .

- يا إلهى . . ماذا تعنى . . ؟؟ يخيل إلىّ أنك ممن يقدسون المتاعب ، ويجرون وراء الآلام .

- إن إغماض أعيننا عن الحقائق هو الجهل بعينه .

- افصح يا شيخنا . .

- هل نسيت أن هناك من تمادوا فى خيانتهم، وآزروا التتار؟ . لقد انحرفوا . . والفرقة ما زالت ذيولها تسعى بين العرب . .

- صدقت . .

- إذن الحرب من جديد . . الحرب بكل أنواعها . . وبين ضجة الطبول . . وأصوات الأبواق، وأغانى النصر والحرية والفخار ومواكب التكريم والثناء، كان ابن تيمية يمضى فى طريقه يفكر من جديد . من أجل نصر جديد .

❑❑❑

الحرية الموهومة

كان يتسلل كاللص خلف الصخور، وبشرته السوداء تلمع بالعرق تحت وهج الشمس الحارقة ورغم أن قدمه الحافية كانت تغوص فى الرمال إلا أنه كان ينتزعها فى عنف، ويسرع الخطى وعيناه تبحثان وسط الجموع، والمعركة المحتدمة عن واحد بعينه كان يبحث عن حمزة بن عبد المطلب . .

بل كان يبحث عن الحرية . .

ولكى ينال حريته يجب أن يقتل . .

وخيل إلى «وحشى» -العبد الحبشى- إنه يستمع لصوت فى أعماقه الحاقدة يقول :

- إلى أين يا وحشى؟؟ وإلى متى يسوقك حقدك اللعين؟؟

وقهقه وحشى قهقهة شيطانية، وغمغم فى استهتار : الحقد . . وهل لى زاد غير الحقد؟ . . طول حياتى لم أعرف الحب، ولم أستشعره أبدًا . . العبيد لا يعرفون الحب . .

فوجودهم مأساة بشعة . . ها أنذا أعيش كالبهيمة مع سيدى . . أفعل ما يأمرنى به، وأتناول الطعام الذى يأمرنى بتناوله، وأنام فى الوقت الذى يحدده لى، وإذا بدرت منى بادرة كسل . أو وقعت سهواً فى خطأ صغير، فلا شىء يبعث فىَّ النشاط أو يمسح عنى جريمة الخطأ إلا الكرباج . . كرباج سيدى . .

الحب . . يا لها من كلمة ساذجة . . أيعرف الحب من انتزعوه من بين أحضان أمه الحنون الدافئة وهو طفل صغير ثم قذفوا به فى جحيم الصحراء، وعرضوه فى الأسواق بدراهم معدودة . . يا للمأساة . . إنى حاقد . . حاقد . . وسأقتل أى إنسان لأنال حريتى . . ألم يعدنى سيدى جبير بن مطعم بالعتق . . بالحرية الحلوة الشهية إذا أنا قتلت حمزة بن عبد المطلب؟؟ . . لسوف أدوس كل المبادئ الإنسانية لأنال حريتى أنا . . أنا الإنسان المعذب . . الضائع . . الغريب . . قسمًا لو طلبوا منى قتل محمد نفسه، واستطعت ذلك . . لفعلت . . لم لا؟ . .

وارتجفت أوصال «وحشى»، وامتلأ قلبه بالرعب والهلع عندما نطق بالعبارة الأخيرة؛ وشعر أن أيادى خفية تتسابق إلى عنقه، وتوشك أن تزهق أنفاسه، فاستدرك مخاطبًا نفسه: «محمد . . » يا لى من أبله . . كيف أفكر فى قتله؟ إن قلبى يحدثنى أن الإنسان الوحيد فى تلك الصحراء الموحشة الذى يبتسم للعبيد ويفسح لهم إلى جواره، ويساويهم بالأشراف

والسادة ويعتبرهم بشراً من البشر . لكن أعداءه يشككون فى نواياه، ويزعمون أنه يربد ملكًا وجاهًا وقلبًا للأوضاع .

وحاول أن يستطرد فى أوهامه، غير أنه لمح فريقًا من النسوة ينحدرن فوق جبل أحد، ويحرضن الرجال على الاستماتة فى الحرب ضد المسلمين، ويترنمن قائلات :

إن تقبلوا نعانق ونفرش النمارق

أو تدبروا نفارق فراق غير وامق

وصليل السيوف يملأ المكان بالضجيج، والغبار يغطى مكان معركة أحد بسحابة كالحة، ورائحة الدم المراق تزكم الأنوف، وأصوات كثيرة متناقضة تصل الأذان «الله أكبر . . النصر للمسلمين»، وأصوات أخرى تصيح «أعل هبل» .

وخرجت واحدة من بين النساء، وصرخت صرخات متوترة . .

- يا وحشى . . اليوم يوم الثأر من حمزة بن عبد المطلب . . الجزاء كبير يا وحشى كما أخبرك سيدك جبير . . الحرية والمال والمتاع كله لك . .

فطأطأ وحشى رأسه، وضغط على حربته فى عصبية، وهتف بصوت كالفحيح : «أجل . . الحرية . . » .

وعاود سيره، وعيناه ما زالتا تتفحصان الوجود، وتبحثان عن «الصيد الثمين».

السيوف تلمع، والخيل لا تكف عن الصهيل، والمحاربون ما فتئوا يهتفون بالنداءات والشعارات المتباينة، وتمتم من جديد:

- عندما يذوق الإنسان طعم الحرية.. يشعر بطعم الحياة حقًا.. يولد من جديد.. وما أسهل أن أقتل رجلاً من أجل ذلك.. المعركة كبيرة.. والجرحى والقتلى يزحمون أرضها.. وحمزة واحد بين آلاف.. ليمت حمزة. وليولد وحشى.. لقد عاش حرآ فنعم بالحياة.. والآن جاء دورى لأكون حرآ.. من الأنانية أن يتجاهل المرء حرية الآخرين.

حانت من وحشى التفاتة، فرأى مشهداً بعث الجمود فى أطرافه، إن رجلاً من مشركى مكة يهتف باسم حمزة، ودقق وحشى النظر فى حمزة فوق جواده يشق الصفوف، ويضرب بسيفه ذات اليمين وذات الشمال، إن قوة غامضة لا شك تحرك هذا الرجل، وتجعله يسخر من الموت، والتحم المشرك فى جولة مع حمزة، وغمغم وحشى: لو مات حمزة بيد هذا المشرك فقد ضاع كل شىء.. وضاع الأمل فى الحرية.. دعوات تلح ألا يموت حمزة إلا بيد وحشى.. فكف عن

الدعاء حينما رأى حمزة يرفع سيفه ويهوى على عنق المشرك فيفصل رأسه عن جسده.

ولم يضيع وحشى الفرصة، إنها لحظة العمر وحاول أن يندفع نحو حمزة لكن قواه خانته لقد خيل أنه بالنسبة لحمزة حشرة حقيرة تحاول أن تتصدى لليث هصور. لن تنصفه المعركة المكشوفة، ولن يدفعه حبه للحرية لمواجهة حمزة الشجاع المؤمن. ومن ثم انتحى جانبًا وأخفى نفسه خلف جذع شجرة عجوز بحيث لم يعد يراه أحد، وأخرج الحربة، ثم أحكم إمساكها. وصوبها نحو أحشائه، ويده لم تزل ترتجف، ثم دفع بها فى سرعة البرق من بعيد، وقد أودعها كل حقده وحيرته وضياعه وعذابه، وضميره يصرخ كالثعلب الجريح.

«.. خذها من عبد أضناه العذاب.. أنا لا أقتلك ولكنى أقتل أساى وعبوديتى، وماضىّ الحزين..؟

تهاوى حمزة، وقد سكنت الحربة أحشاءه.

وينظر إلى الأمام، كان خلف الشجرة وجه أسود، تبرق أعلاه عينان حائرتان مذعورتان، وتحامل حمزة على نفسه وحاول أن يزحف نحو الشجرة.. لكنه لم يستطع. فابتسم ابتسامة صافية مشرقة، ولعله أراد أن يقول شيئًا، أو هكذا خُيل إلى «وحشى».. أكان يريد أن يقول له: ويحك يا

وحشي . . كيف تجرؤ على قطع اليد النظيفة التي توشك أن تهبك الحرية . . الحرية كحق نابع من السماء لا كمنحة تلقى إليك من السادة المتغطرسين . .

وانطلقت من خلف وحشي صيحة فرح :

- منذ اليوم أنت حر يا وحشي . .

ونظر وحشي إلى سيده جبير في ذهول دون أن يجيب ، وقطع عليه ذهوله صوت هند زوجة أبي سفيان وهي تقبل مهرولة لا تكاد تسعها الفرحة :

- شلت يمينك يا وحشي . .

وأفاق وحشي كمن لدغته عقرب ، وقد صدمته كلمتها «شلت يمينك» والتفت إليها في حيرة :

- شلت يميني؟ كيف يا هند؟؟

فاقتربت منه هند ، وهي تضحك ضحكات مخبولة ، وعادت تقول :

- لقد التبس عليّ الأمر . . إن روعة ما أقدمت عليه قد عكست منطقي . . أردت أن أقول سلمت يمينك يا وحشي . . يا بطل الأبطال . . والآن دعني أذهب إلى حمزة . . لسوف أستخرج كبده . وسألوكها في فمي متلذذة سعيدة ، لعلها

تطفئ نار الحقد التى تعتلج فى صدرى . . آه من يوم بدر . . لقد قتل حمزة الأماجد الأشراف من قومى . . وجرت لتقترف فعلتها الشنعاء . .

المعركة لم تزل محتدمة الأوار ، والصيحات تتعالى فى السماء المتربة المكفهرة ، دماء وعرق وطين وجنون «وحشى» يعود مطأطئ الرأس ، ذاهلاً عن كل ما حوله قد حطت على قلبه كآبة مجهولة المصدر ، وانتحى بعيداً عن أرض المعركة ، وآوى إلى ظل صخرة منعزلة ، وتلفت حواليه فى حيرة ، وأخذ يحادث نفسه كمن فقد عقله :

- والآن هل أصبحت حراً؟؟

وصرخ إلى جواره وحش ضار ، وهو يطارد غزالاً فى بطن الصحراء الممتدة الفسيحة فلم يشعر بالخوف . بل أخذ يرمق ما أمامه فى ذهول ، وأخذ يهمس من جديد :

- هل أصبحت حراً يا وحشى؟

- أجل . .

- لماذا لا تنعم بالحرية الآن . . لماذا لا تغنى وتطرب وترقص ، وتملأ الآفاق ترنيماً بأناشيد الحرية . .

لكن الكآبة لم تزل تحط على قلبه ، وابتسامة حمزة الصافية

المشرقة ما برحت ترتسم فى خياله العليل . لقد مات حمزة وهو أسعد حالاً منه . . هكذا دائمًا أتباع محمد . . وأغمض وحشى عينيه وأوشك أن يدهمه النوم . وخيل إليه أن صوتًا يهمس فى أذنه :

- أو تظن أن حربتك الملوثة بالدم قد صنعت لك حريتك ليس هذا هوالطريق يا وحشى . . لن يكون الحقد طريقًا إلى الحرية .

- فما هو الطريق إذن؟؟

- سل بلالاً . . وصهيبًا . . وسلمان . . سل محمداً . .

- الطريق ، الطريق . . ؟

- الإيمان بالله . . بالإنسان بالحب هوالطريق . . حرِّر نفسك من الأباطيل . . لتطلب الحرية من الله . . وليس من جبير أو هند . .

وأفاق وحشى من حلم اليقظة ، وتلفت حواليه من جديد . الصحارى الرحيبة . . المعركة القاسية . . الفراغ . . الضياع . . فصرّ على أسنان وقبض على حربته بيد متشبثة ، ثم قذف بها بعيداً وهو يلعنها . . وبقى لحظات صامتًا . . ثم انفجر باكيًا . . بكاء لم يبكِ مثله من قبل . .

دموع الأمير

لم ينم هشام بن إسماعيل المخزومى ليلته.

القصر الذى يعيش فيه قصر فخم.. تضوع فى جنباته الروائح الشذية، وحجراته مفروشة بالأثاث الجميل الذى يتناسب مع والى «المدينة» وأميرها الذائع الصيت، والخدم والعبيد تحت أمره.. وتكفى كلمة واحدة لأن يتحرك رهط كبير كى يلبى طلب الأمير..

وكانت الفرش الحريرية تحت جنبه تبدو وكأنها أشواك حادة تنغرز فى جسده، والمصابيح الزيتية التى تضىء الحجرة بدت هى الأخرى وكأنها عيون فضولية تختلس إلى النظر وتتسلل إلى حنايا نفسه ودهاليز ضميره..

ووثب هشام من فوق سريره، وقد ظهر الاحتقان فى عينيه، والشحوب على وجهه، وأخذ يطفئ الشموع والمصابيح.

كل مصباح بنفخة واحدة أودعها كل ما فى قلبه من قلق

وحنق وندم، وحينما ساد الحجرة الظلام ولفها السكون أحس هشام بقليل من الراحة تتسرب إلى داخل نفسه وغمغم بينه وبين نفسه «ما أروع الظلام! إنه شيء متجانس غامض. . لا تصطدم العين فيه بشيء. . لا مصابيح مرتعشة، ولا ظلال متراقصة على الحيطان ولا ستائر ملونة. . لا شيء. . لا شيء أراه إلا السواد المتجانس الممتد الذى ترتاح إليه نفسى. . أما النور فأنا أحس أنه يعرينى جسداً وروحاً.

وتململت زوجته إلى جواره وقالت والنوم يغالب إرادتها، ويخرج كلماتها متقطعة متداخلة:

- ماذا تفعل يا هشام؟

فقال محتداً:

- لا شيء. . لا شيء. نامى يجب أن تنامى.

فقالت وقد أطارت حدته النوم من عينيها:

- إنك تطفئ النور. وهذا يضايقنى. . أحس فى الظلام بأنفاسى تحتبس.

عندئذ قاطعها قائلاً:

- تستطيعين أن تذهبى إلى حجرة أخرى إن لم يعجبك جو حجرتنا. .

ودهشت الزوجة للهجته الجديدة الشاذة، وقالت لنفسها:

لابدّ أنه مرهق . . إنه طول اليوم فى عمل مستمر ، ينظر فى القضايا ، ويضرب على الخارجين على القانون ، والأدهى من ذلك الخصوم السياسيون لبنى أمية وخاصة أهل البيت . . إنهم دائمًا مصدر متاعب منذ أن استشهد الحسين بن على بسيوف اليزيد ، لست أدرى ما الذى أتى بنا إلى هنا . . أرض المتاعب والثورة ، والانقضاض على حكم بنى أمية . . ليت الخليفة قد ولى هشام فى مكان آخر غير المدينة . . لكن ماذا يجدى القول . قد انتهى الأمر ، وها هو مر عليه وقت طويل . . حتى مات الخليفة منذ أيام قليلة وتولى الخلافة بعده ابنه الوليد بن عبد الملك وليس من المنتظر أن يحدث أدنى تغيير . . . أى أننا سنبقى هنا حيث المتاعب والانقضاضات السياسية وحيث يوجد على زين العابدين ابن الشهيد الحسين . . ذلك الذى يستمتع بسلطان أكبر من سلطان زوجى . . والذى يتعرض لشتى صنوف القسوة والإيذاء من هشام دون أن يتحول عن رأيه فى بنى أمية ، أو يهادن فى عدائه السياسية . . إن زين العابدين رغم صلاحه وتقواه . . أساس المتاعب .

وتوقفت الزوجة عن التفكير حين قال زوجها هشام :

– هيه . . ماذا قلت؟ أتبقين فى الظلام؟

– ما دمت تحب الظلام فأنا أحبه مثلك . .

– كما تشائين . .

وسكت . . .

حاولت أن تجره إلى المرح لكنه لم يستجب ودفعها عنه فى رفق، متعللاً بأنه يريد أن ينام فرأسه نهب للصداع، وجسده منهك، والنوم عزيز المنال، فقالت زوجته وهى تبتعد عنه:

- يبدو أنك ما زلت متألمًا لموت الخليفة . . .

وانطلقت منه فجأة ضحكة ساخرة وقال:

- ليمت الخليفة أو يبقَ . . فالأمر بالنسبة لى سيان . . إننا لا نفكر فى الخلافة إلا بالقدر الذى يهمنا . . بالمشاكل التى تربطنا بها . . أنا لا أفكر فى الخلافة إلا من خلال عملى واليًا للمدينة . . من خلال وضعى الشائك، وماضىّ الملىء بالحوادث والصراع الدامى . .

ولم تفهم تمامًا ماذا يقصد زوجها، كانت كلماته غريبة تنبعث منها رائحة اليأس والخوف، وتحمل فى ثناياها بوادر الإشفاق من المستقبل وما يطويه من أسرار ومفاجآت . . .

لكن زوجته -بالرغم من الحيرة والقلق- آثرت أن تصمت، وتدارى قلقها كى تتيح الفرصة لزوجها كى ينام ولصداع رأسه كى تخف حدته.

ونام هشام مستلقيًا على ظهره، وبقيت عيناه مفتوحتين إلى

لا شيء عبر الظلام المتراكم الممتد، وجبينه ينضح بالعرق، وأنفاسه تتلاحق فى حشرجة مسموعة. . .

لم يسكب الظلام الهدوء على نفسه كما توهم، ولم يزرع فى قلبه السكينة والأمن، بل أخذ يطبق على صدره، ويوشك أن يكتم أنفاسه حتى خيل إليه أنه فى شبه غيبوبة، ومن خلال قلقه الرهيب ورأسه المصدع وأفكاره المتلاحقة المضنية. . . بدت له أشباح الماضى التى يجسمها الظلام ويزيدها بشاعةً ورهبة. . آه. . ذلك الأعرابى الذى جاء إليه وقال له: يا هشام يا ابن إسماعيل المخزومى أنت ظالم. . لم يحاول أن يسأله عن سر تهجمه عليه. . بل المرأة التى اعترضته فى المسجد ذات يوم، ولم يكن يبدو من وراء لثامها غير عينين تبرقان بالثورة. .

وصاحت فى وجهه قائلة: يا هشام يا ابن إسماعيل المخزومى. . أنت ظالم. . فعاملها بقسوة، وذلك المولى من موالى أهل البيت حين صادفه فى الطريق، واندفع إليه وكله غيظ وحنق، وصرخ فى وجهه: أتؤذى أهل البيت. أهل الرسول وعلى مقربة منك قبر الرسول. . يا هشام يا ابن إسماعيل المخزومى أنت ظالم. . ظالم. . ولن ينفعك بنو أمية حين تقف أمام الله. .

وعلى زين العابدين. . لكم تعرّض له هشام بالإيذاء، واعترض طريقه، وهاجمه فى عنف بالغ لا هوادة فيه. حتى

ضجّ الناس بالشكوى واستجاروا، ولا مجير. . والدماء التى سـالت باسم أمن الخـلافـة. . وهدوء بال الناس. . وأولئك الذين رسفوا فى الأغلال باسم الخليفة. . باسم الدين. .

وجـوه كـثـيـرة كـانت تتـلاحق فى الظلام، كلهـا حـقـد مغلوب. . وعيون كثيرة كانت تبرق فى الظلام كلها صيحات وصـرخـات. . وينابيع تتـفـجـر بالدمـاء البـريئـة والآثـمـة. . وخطب نـارية مـتـوعـدة من فـوق المنبر. . تمامًـا مـثلمـا يفـعل الحجاج بن يوسف فى العراق. . الظلام مليء بشتى الصور. والأشباح والضحايا. .

ووثب هشام من فوق سريره مرة أخرى مذعورًا. .

ولـم يتـمـالك نفـسـه، أو يضبط أعـصـابه المتوترة فـانكفـأ على وجهه، واصطدمت جبهته بصيوان كبير على ميمنة السرير فشجت رأسه، وسال دمه على وجهه ساخنًا ودافئًا. .

وصرخت زوجته مرتاعة:

– ماذا جرى لك يا هشام؟

– لا شيء.

وأقـبل بعض الخـدم بالبـاب حـينمـا تناهت إلى أسـمـاعـهم أصوات الضجيج وصرخة السيدة زوجة الأمير هشام:

وصاح هشام بصوت أجش حاول أن يكون صارمًا لا أثر للخوف أو الارتعاش فيه :

- أضيئوا الأنوار . .

وفى دقائق قليلة كانت الحجرة هادئة ساكنة يغمرها الضوء وهشام مضطجع على سريره معصوب الرأس ، وقطرات من الدم الأحمر تترك أثرها على الضمادة البيضاء وزوجته تجلس إلى جواره تكتم إزعاجها ووجلها ، وبالرغم من ذلك لم تستطع أن تخفى الحيرة والقلق المرتسمين فى نظراتها الخائفة . وتعبيرات وجهها الذى ساده الشحوب . .

وبعد فترة صمت طويلة قالت والخوف يكاد يعقد لسانها :

- إنك تخفى عنى شيئًا يا هشام . .

- هذا حق . .

- أتسخر منى يا زوجى الحبيب؟

- لا أسخر ولكنها الحقيقة المرة يا زوجتى .

- ماذا تعنى؟

فأجابها بصوت تعروه بحة تعسة :

- جاءنى صديق قديم من دمشق اليوم خفية دون أن يشعر به أحد ، وحمل إلىَّ أنباء أزعجتنى . .

- خيراً إن شاء الله يا هشام . .

- لم أشم فيما قال خيراً بل ضياعًا وحسرة .

- أفصح فقد آلمتنى . .

- هناك نية لعزلى من الولاية . .

فقالت مقاطعة :

- وتوليتك فى مكان آخر؟؟

فقال بائسًا :

- كلا . . . إن الخليفة الجديد الوليد بن عبد الملك سوف يعزلنى نهائيًا ، ولن يولينى فى مكان آخر . . يبدو أنه سوف يغير السياسة التى درج عليها أبوه نحو أهل البيت ونحو على زين العابدين بن الحسين بالذات . .

وأطرقت زوجته صامتة ، بينما استطرد هو فى حديثه :

- بعد أن كنا كل شىء فقدنا كل شىء .

ثم أجهش بالبكاء . .

وأجهشت معه زوجته -هى الأخرى- بالبكاء .

وقالت الزوجة وهى تحاول أن تتماسك :

- لا أريدك أن تبكى . .

- صدقت . . لا تريد المرأة أن ترى دموع زوجها . .

واستأنفت حديثها :

- لا ينسى لك بنو أمية معونتك لهم ، لقد كنت سيداً يحمى سلطانهم ، ويسوق الناس إلى طاعتهم وقضاء كل ثورة تنطلق ضد حكمهم . .

فقال وهو يجفف دموعه :

- هذا صحيح . . لكن مما يحزننى أننى كنت أداة غاشمة فى يدهم . أسلك أى سبيل . . بل أبشع السبل للقضاء على مناوئيهم وأجتلب سخط الناس فى سبيل رضاهم ، لقد أخذونى لحمًا وعظمًا ، وتركونى . .

خسرتهم وخسرت الناس . . لم أنل شيئًا غير سخط الخالق والخليفة . لو كنت عادلاً شفوقًا بالناس لخسرت فقط بنى أمية ، ويقى لى الرصيد الكبير . . الرصيد الذى لا ينفد ، رضى الله ورضى الناس . . كنت بالأمس حذاء جديدًا فى قدم الخليفة القديم مرقّع يرمى به فى الخرائب . . فانتصبت زوجته واقفة ، وقالت محتدة :

- لا تقل هذا الكلام . . إنك أكبر من ذلك بكثير . .

والحكم والحكام فى كفة القدر . . بالأمس خليفة وغداً

خليفة جديد . . لا أحد يدرى ما تأتى به المقادير . . فغمغم بصوت جريح : أجل ، ولا أحد يدرى ما تأتى به المقادير .

وتناهى إلى أسماعهم من بعيد صوت المؤذن يدعو الناس إلى صلاة الفجر . . «الله أكبر . . الله أكبر» . . وكان الصوت نديًا أخاذًا ، . فيه روعة الحب ، وفيض التقوى ، وندى الإيمان ونغمة خاصة تصل إلى القلب مع الأذن ، تذكر الإنسان بأشياء كثيرة مختلطة غامضة لكنْ فى غموضها شوق لذيذ عجيب ، أشياء مثل الحياة والموت والقبر والنعيم والضراعة أشياء كثيرة . . كثيرة جدًا . . لها نكهة خاصة يدركها أكثر ما يدركها المحزونون والخطاة والذين يوشكون أن يودّعوا الحياة . .

وارتخت جفون هشام بالرغم منه .

ودارت رأسه وخُيِّل إليه أن الحجرة تدور معه ، وأن الشموع والمصابيح المضاءة هى الأخرى تميل وتنحنى ثم تستقيم من جديد وأغفى ساعة أو بعض ساعة .

وحينما فتح عينيه همس فى إشفاق :

- خير إن شاء الله . . لقد رأيت فى منامى رؤيا عجيبة . . يبدو أن الأمر ليس بسيطًا ولكن هناك أشياء أخرى . .

وتنهد هشام فى أسى ، وكانت تنهداته تطفح بمزيد من الحزن والخوف ، وشعر أنه أصبح شيئًا آخر غير ما يراه الناس ،

أنه فى ثوب أمير عالى الشأن وحوله كل مظاهر المجد والعظمة، لكن حقيقته تخالف ذلك تمام المخالفة، إنه أمام نفسه إنسان صغير . . ضئيل . . مرتجف . حياته كلها مرتبطة بخيط واهٍ . . خيط الإمارة، وعندما ينقطع هذا الخيط فسوف يهوى من حالق، ويرتطم جسده الثقيل، وعظامه بالأرض الصلبة فتصرعه، أو تهشم عظامه وتتركه إنسانًا ضعيفًا تعسًا يستدر العطف ويجلب الرثاء . .

وقالت زوجته :

– فيم تنهدك يا هشام؟

فقال يائسًا :

– ألا تعلمين؟

– أعلم أن الأمر بيد الله لا بيد الخليفة . .

– كلنا نعلم ذلك وليس هذا بمانع يا عزيزتى .

– هذا ضعف الإيمان يا هشام .

– بل تستطيعين أن تقولى : إنى أخطأت فى حق البشر . . ويجب أن أخاف الخليفة وأخاف الله . . والإيمان فى هذه الظروف هو إيمان الذى يوقن بالشر يأتيه ويظل على نار الانتظار . . ولهذا تعذبنى الذكريات وتدور فى نفسى

الهواجس والحقيقة يا زوجتى أن خوفى قد تضاعف بصورة بشعة، لا لخبر أتانى بل بسبب رؤيا رأيتها هذه الساعة وأنا نائم، أتدرين ما هذه الرؤيا؟؟ إنها مخيفة. . مخيفة جداً. لو خضت معركة، وتعرضت للموت لما كان إشفاقى يضارع حالتى وأنا أفيق من نومى. .

وقالت زوجة هشام وقد فاض بها الضيق وانتقلت إليها عدوى الخوف.

- قل ما رأيت يا هشام. . قل حتى تخفف عن نفسك بعض ما أصابها من قلق واضطراب ومن يدرى؟ قد تكون هذه الرؤيا فاتحة خير وقد أستطيع أن أفسرها لك تفسيراً مريحاً. .

- لا أظن ذلك، إنها فى غاية الوضوح. .

- ويحك يا هشام. . إنك تعذبنى وأنا أحاول جاهدة أن أصرفك عن هذا التفكير القاتل. ولكنك تتمادى فى تعذيب نفسك. . ماذا أقول أكثر مما قلت لك يا عزيزى. . لتروِ لى رؤياك، فالشمس أشرقت، وعليك أن تبادر بالذهاب إلى مقر حكمك، ولعل الله يكتب لك الخلاص، ويهبك التوفيق والسداد.

وأحنى هشام رأسه وأسند خده على قبضة يده اليمنى، ثم غاب لحظات فى تفكير عميق. . وبعدئذٍ رفع رأسه متوجهاً

ببصره إلى سقف الحجرة شارد النظرات كاسف الوجه. وعلى سيمائه سطور ألم ناطق، تثير الإشفاق أكثر مما تثير الشماتة، وتكلم هشام وزوجته كلها آذان صاغية لما يقول:

- أجل يا عزيزى.. رأيت كأننى فى قصر ضخم.. تحيطه الحجاب والحراس.. تتراءى حوله وفى أبهائه الفاتنة شتى ألوان النعيم والثراء والسلطان، وكنت أنا جالسًا على أريكة عالية، أو منبر عال.. لا أذكره تمامًا.. لكنى واثق تمام الثقة أن المنصة التى اقتعدتها كانت أعمدتها ملوثة بالأوحال ويدى هى الأخرى ملوثة بشىء يشبه الروث وكلما حاولت تنظيفها عادت كما كانت.. ولا أدرى كيف كان يحدث ذلك.. واستسلمت فى النهاية لهذا الوضع الذى يثير التقزز ويبعث علىّ الضيق حتى طاب لى المجلس العالى الذى يعلو هامات من أمامى من الرجال، ورضيت بما أنا فيه من غضاضة.. شى مزعج يا زوجتى.. أليس كذلك؟؟ لكن لأكمل حديثى فأنا أشعر بضيقك وتبرمك من أمرى.. وتلفت حولى يا عزيزتى.. وصفقت فى عنف. وأحسست بمراجل الغضب تنفجر فى قلبى الثائر الحانق: أين (العبد الأعجمى) لأعذبنه عذابًا شديدًا أو لأذبحنه. يجب أن يأتى فورًا ومعه الشراب الأسود.. والكأس السوداء..

ولم أكد أنهى حديثى حتى لمحت «العبد الأعجمى» يأتى مهرولاً حاملاً فى يمينه الكأس السوداء.. وفى يسراه وعاء

كبير يمتلىء بسائل أسود . . وكان العبد يرتعد . وعلى شفتيه ابتسامة مرتجفة . . ابتسامة أعرفها تمامًا عند أولئك العبيد الذين يطيعون الأمر دائمًا . لكنهم يخالفونه تمام المخالفة بضمائرهم وقلوبهم . وتفحصت ابتسامته المرتجفة ، ونظراته الزائغة الخائفة . . وزحفت ببصرى إلى الكأس السوداء ، والسائل الأسود لكنى طربت كثيرًا حينما لمحت سوطًا معلقًا فى حزام حول وسطه فوثبت فوق الكرسى واختطفت السوط وأهويت به فى تشفٍّ عجيب . . ولذة شاذة . . على وجه ذلك الأعجمى وجسده . . كان يصر على أسنانه من الألم . . وكانت ملامحه تنقبض وتنبسط مع كل ضربة . . غير أن الابتسامة المرتجفة بقيت كما هى دون تبديل أو تغيير . . ولم تأخذنى به شفقة ، ولم يوقف قسوتى رحمة . ولم أكد أنتهى من عقابى له وأعود إلى المنصة الملطخة بالوحل حتى وجدت ذلك العبد يصعد درجتين ثم ينحنى أمامى فى خشوع وتذلل ويقول :

- مولاى الأمير . . الكأس السوداء . . والخمر الأسود والسوط . . الثلاثة معك يا مولاى العظيم .

الابتسامة المرتجفة لم تزل فوق شفتيه تتلوى مثل الثعبان . وأحسست بكره شديد لابتسامته تلك ولخشوعه وتذلله . فصرخت فيه : لا تبتسم واصلب عودك . وبعد أن فعل ما أمرت به قرب الوعاء منى فوجهت إليه نظراتى ثم اختبرته

بإصبعى فوجدته سائلاً لزجًا غليظ القوام . . نتن الرائحة ، تعافه النفس ، ويبعث على التقزز والغثيان فزمجرت فيه :

- حسن . . حسن . . اغرب عن وجهى وضع الوعاء أولاً والكأس السوداء إلى جوارى .

وحول المنصة تراءى لى خلق كثير . كانت وجوههم متشابهة فى ملامحها وسمرتها ونظراتهم جميعًا مصوبة إلىّ وكأنها سهام ترشقنى ، والجفون منتفخة تجحظ منها عيون محترقة بالعذاب . وقد ضرب الجند حولهم ستاراً يمنعهم من الإفلات ويرغمونهم بالقهر والإرهاب على البقاء فى الساحة الواسعة . . ومن بعيد لمحت مئذنة من نور كعمود ضخم ضارب بين السماء والأرض . . فلوى الناس رءوسهم صوب النور المتوهج عند المكان الذى دفن فيه الرسول . . وحاولوا أن يندفعوا إليه فى شوق مجنون ، لكن السياج المنيع الذى أقامه الجند حولهم قد حد من انطلاقهم . . وعاق انفلاتهم فبقوا فى أماكنهم تنهمر منهم الدموع ويشقيهم الحرمان . . وبانت الثورة والحقد فى عينى رجل قريب من المنصة وامرأة تقف إلى يساره . . فأمرت الجند فجروهما إلىّ جراً . . وصيحات المرأة وتوسلاتها تتعالى وتطغى على ما عداها من الأصوات وملأت الكأس السوداء من السائل الأسود وقلت للرجل : اشرب . . «لا بد أن تشرب» ، ولما تعزز وأبى ، أمسك به الجند وجرعوه

الكأس رغم أنفه . . كان يتلوى ويحاول أن يفلت لكن هيهات . ثم دفعته بيدى بعيدًا وأنا أسوقه بالسوط وجنودى يفعلون مثلما أفعل . . ثم ثنيت المرأة وفعلت بها ما فعلت للرجل . . وهكذا أخذت أمواج الناس تتدافع نحوى . . منهم من يأتى طائعًا مقهورًا دون جهد ، ومنهم من يسوقه الجند سوقًا إلىّ فأسقيهم من الكأس السوداء وأضربهم بالسوط ضرب غرائب الإبل . . كل ذلك والمئذنة المضيئة لدى قبر الرسول تزداد إشراقًا وروعة ، والناس يزدادون تهلفًا وتحرقًا إليها ، والجند يذودنهم عنها كلما أشرت إليها . .

ولمحت من بعيد رجلاً يقدم علىّ فى خطوات هادئة وقورة . . فوق رأسه تاج يشع كما تشع المئذنة التى تتراءى من بعيد ، واقترب الرجل منى ، وملأتنى الدهشة وأنا أراه يتخطر فى شموخ وكبرياء ، لا تبدو عليه أثارة من خوف أو اشارة من احجام الابتسامة التى على ثغره نابضة صافية ، والنظرات التى تنطلق من عينيه وادعة رائقة والناس يرمقونه ويحيطون به من كل جانب ، ورأيت نظراتهم تفيض بالحنين نحوه ، لم يكن واضحًا لدىّ من هو فرأيتنى أصرخ طالبًا العبد الأعجمى فيأتى مهرولاً ، والابتسامة المرتجفة على ثغره من جديد ، فقلت له :

- «أيها الوقح . . من هذا الرجل؟؟» .

- «الجميع يعرفونه يا مولاى . . » .

فقلت له وأنا أهوى بالسوط على وجهه:

- «قلت لك من هو أيها الوغد؟».

- «هذا زين العابدين بن الحسين يا سيدى الأمير..».

فهتفت مغتاظًا: «عليَّ به فى الحال، سوقوه إلىَّ دون شفقة.. إنه يناهض بنى أمية، ويعارض سياستهم..».

وملأت الكأس بالشراب الأسود اللزج حتى فاض على يدى منه شىء، فاختلطت الأوحال بالشراب وتكون منها خليط منفر وكان زين العابدين قد أقبل، ولم يخالط حركاته ارتباك، أو يبدو على وجهه بادرة من ذعر، ومددت إليه يدى بالكأس وقلت له:

- «اشرب.. وسوف تشرب هذه الكأس مرتين أو ثلاثًا..».

فتناول الكأس منى دون انفعال لم أرَ غير شفتيه تتمتمان بصوت خفيض: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا يَخَافُ ظُلْمًا وَلا هَضْمًا﴾ [طه: ١١٢] وغمرتنى الدهشة وأنا أرى الكأس الأسود يتحول فى يده إلى كأس بلورى شفاف، مضىء كما تضىء العمامة فوق رأسه، تلك العمامة التى وددت أن أطفئها بضربة من قبضة يدى الملطخة بالأوحال، واستحال السائل الأسود إلى مادة صافية لا أثر للأوشاب أو التلويث فيها وتجرعها زين العابدين باسمًا وهو يقول:

- طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس .

ولم أفهم معنى لكلماته ، وأهويت عليه بالسوط كما فعلت مع أفراد سبقوه ، وكان زين العابدين يمشى فى طريقه والناس تحنو عليه ، وتخشع له بنظراتها الحانية ، وهو لا يتأوه أو يتألم تحت وطأة السياط ، وكأنى أضرب فى قطعة من الصخر ، وبالرغم من هذا فقد تعالى ضجيج الناس وتكاثرت احتجاجاتهم ولم تجدِ صرخات أو تهديد الجنود لهم ، وأخذ زين العابدين يبتعد رويدًا رويدًا وأخذت أزاول المهمة العجيبة التى جلست من أجلها . . وانتصف النهار أو كاد يا زوجتى العزيزة أو هكذا خُيِّل إلىَّ . . وأحسست بملل شديد وكرب نفسى ، وفجأة رعدت السماء وانقض القصر الشامخ الذى أجلس أمامه وانهارت أعمدته ، وتلفت مأخوذًا يمنة ويسرة والحيرة قد سطت على كل منافذ الفكر ، ثم نظرت من جديد إلى الجموع الواقفة وإلى سياج الجند الذى يمنعهم من الهروب أو الانطلاق . ورأيت العبد الأعجمى يقبل وعلى شفتيه ابتسامة ساخرة . . أجل . . ابتسامة ساخرة هذه المرة . . ولم يكن خائفًا أو متذللا . بل أقبل فى ثقة وشجاعة يحسد عليهما ثم انتزع السوط من يدى ، وحمل الوعاء الأسود بشرابه وكأسه إلى مكان قريب . . وأشار للناس بيده فتدفقوا عليه من كل فج ، وهم يرسلون صيحات تصم الآذان وفى يد كل واحد

منهم كأس مثل الكأس التى كانت معى، وملئوا كئوسهم ثم اتجهوا نحوى . . وبينهم زين العابدين بن الحسين . . فى الوقت نفسه هتفت بالعبد الأعجمى كى يقبل علىّ لكنه قهقه ساخراً وأتانى بكأسه ثم ضغط بأصابعه الغليظة على وجهى وبين فكى . حتى أرغمنى على فتح فكي وهو يقول :

- «اشرب . . نفس الكأس . . » .

فدفعت الكأس بيدى وأنا أتوعده، ولكنه تناول سوطه وهوى على وجهى فى قسوة مؤلمة ترنحت لها وفقدت السيطرة على أعصابى وقوتى، ووجدتنى مستسلمًا أشرب الكأس ويا لها من كأس . . كانت لزجة . . نتنة . . مرة المذاق أحاول أن أتقيأها فلا أستطيع . وقال العبد والشرر يتطاير من عينيه وكأنهما عينا مارد جبار :

- «لا تجزع . . ماذا ستفعل لو علمت أنك ستشرب آلاف الكئوس . . ؟؟» .

- آلاف الكئوس . . ؟

- «أجل . . انظر إلى هذا الحشد الحاشد وانظر إلى الكئوس التى معهم . . «سوف تشربها جميعًا . . » .

- «سوف تنفجر أمعائى . . » .

- «ولم لم تفكر فى أمعاء الآخرين من قبل؟» .

- «لأنى . . لأنى . . ».

- «لأنك أنانى . . حقير . . يا هشام يا ابن اسماعيل المخزومى . . ».

ودارت الكئوس على ثغرى، تأتينى ملأى ثم تشيح عنى فارغة، والسياط تنهال على جسدى ووجهى لا حصر لها. ومن بعيد لمحته قادمًا فارتعدت فرائصى . . وخارت قواى كان ذلك هو زين العابدين بن الحسين فقلت فى نفسى: ويحى منه، سوف يذيقنى هوانًا ما بعده هوان . . لكنى فؤجئت به يأتينى ولا كأس فى يده، ونفس الابتسامة الرائقة الصافية تتألق على ثغره وفى نظراته . . ووجدت الناس من ورائه بلا كئوس . . وحينما اقترب منى مسح على رأسى، وهم أن يقول كلامًا! . . لكنى أحسست بك تتقلبين بجوارى على فراش النوم، ثم تقع يدك على رأسى الملتهب الذى يغمره العرق فأصحو من نومى، ويذوب وهم ذلك الحلم الرهيب كما يذوب الثلج تحت وهج الشمس، لكن الألم الذى يحز فى نفسى، والحزن الذى غمر فؤادى ما برحا يهزان كيانى هزًا عنيفًا . . وصور الرؤيا الرهيبة تمر بذاكرتى المتعبة المكدودة . .

ولم يجد هشام فى نفسه رغبة أو دافعًا يدفعه للذهاب إلى مقر الإمارة، كانت أفكاره السوداء توهن من عزيمته، وتشاؤمه الشديد يهد من نشاطه، وكيف يذهب وكرسى الإمارة يهتز تحته، بل

يوشك أن يقذف به بعيداً إلى هوة سحيقة . . ولا شك أن شائعة عزله سوف تصل آذان الناس إن عاجلاً أو آجلاً . وعندها يطرب الأعداء ويتيه الحاقدون سروراً وشماتة، وتنتقل همسات الهزء والسخرية من شارع إلى شارع ومن قبيلة إلى قبيلة، ويعرف القاصى والدانى أن هشام بن إسماعيل المخزومى الجبار العتيد أصبح فرداً ضعيفاً لا عون له ولا سند، وتمتم هشام فى حيرة :

- ماذا أفعل يا زوجتى؟

- تذهب إلى مقر حكمك . .

- أكون كمن يسوق نفسه إلى حفرة نار . .

- ولم؟؟

- أشعر كأنى دخيل . . لم يعد المكان مكانى . . ويدى خالية من أية سلطة . . ومواجهة الجند والناس، وأنا فى مركز مزعزع- أمر قاتل . . قاتل . .

فقالت زوجته فى إصرار :

- لم يعزلك الخليفة بعد . .

- هذا حسن . . لكنه أمر مقرر .

- إن رجولتك تفرض عليك أن تؤدى واجبك حتى آخر لحظة . .

فقال وهو يطأطئ رأسه آسفًا :

- أجل أنا جندى من جنود الخليفة وطاعتى له يجب أن تكون طاعة عمياء .

ومضى هشام فى شوارع «المدينة» يحيط به موكبه الرسمى كالعادة، وبالرغم من ذلك فقد كان الموقف كابيًا حزينًا، الجنود لا يجدون فى أنفسهم إثارة من حماس كى ينطلقوا بجيادهم هنا وهناك ويفسحوا الطريق أمام الأمير ، والمارة لم تكن هذه عادتهم كانوا بالأمس حينما يرون موكب الأمير يدلفون إلى شارع جانبى كى يتجنبوا لقاءه، حتى لكأن مجرد رؤيته تثير حفيظتهم وتدفعهم بدافع الخوف، وإذا لم يدلفوا إلى شارع جانبى كانوا يقفون فى خشوع، نظراتهم كبيرة وابتسامتهم مصطنعة مرتجفة ترتسم على ثغورهم . . أما اليوم فلا يفر أحد . الناس يمرون فى الطريق وكأن الأمير واحد منهم لا يستوجب خشوعًا أو هروبًا إلى طريق آخر، لم يعودوا يطرقون حياء وخوفًا . بل نظراتهم ترتفع إليه لأول مرة فى فضول وتشوف . .

وغمغم هشام بينه وبين نفسه :

- أيها الأغبياء الآن ترفعون نظراتكم إلىَّ . . لتروا كيف هويت من أعلى . . كيف لبس وجهى ثوب الكمد والحزن، وكيف احتقنت عيناى من طول السهر . . حملقوا فىَّ كيف شئتم . . وتشفوا بمنظر الأمير الحزين الذى يوشك أن ينتهى إلى

لا شيء . . لا أنكر أنكم مساكين وأننى ظلمتكم لكن شماتتكم حمق وغدر وغباء . . إن شماتتكم تمسخ إنسانيتى وتجعلنى أكرهكم لا من أجل بنى أمية هذه المرة، ولكنه من أجل نفسى . . من أجل هزيمتى التى تتلذذون بمشاهدتها . . إن العزل كارثتى الكبرى . . أما الشماتة فهى شيء فوق الكارثة الكبرى . . الموت أهون منها . . وبرقت فى ذهن هشام خاطرة . . يا لها من حلم منعش جميل . . لماذا لا تكون شائعة العزل مختلقة من أساسها؟ ما أجمله من يوم ذلك الذى أثبت فيه مركزى، وتعود مكانتى إلى احترامها ووقارها ويبقى هشام بن إسماعيل المخزومى واليًا على المدينة رغم أنف الحاسدين والحاقدين والكائدين، لكن هل سيعود مرة أخرى إلى البطش والإرهاب وإرغام الناس على الخضوع له، والتسبيح بعدله حتى ولو ملأ ربوع المدينة جوراً وعسفًا؟ لا . لا . لو حدث ما يحلم به فعلاً فلسوف يخشى الله ويتقيه وينصف بين عباده، ويحظى بمحبة الخلق والخالق. إن تجربته الماضية كانت درسًا عميقًا يجب أن يحفر فى ذهنه حفراً لا يمحوه سلطان جديد أو انتصار طارئ.

وارتاح هشام لهذا الخاطر، وانجابت عن قلبه غشاوة الألم والحزن إلى حين، وشعر بنسمة رطبة منعشة تلامس جبهته، فرفع رأسه ليستنشق منها، فوقع بصره على مئذنة قبر الرسول، فتذكر على الفور تلك الرؤيا الرهيبة وتذكر المئذنة النورانية التى تصل

السماء بالأرض، والتى كانت تجذب إليها الناس جذبًا، فيديرون إليها رءوسهم ويشرئبون إليها بأعناقهم ونظراتهم المشتاقة، وسرعان ما عاوده ما كان يكابده بالأمس من هم وقلق وأحزان. .

وبلغ الموكب دار الإمارة، واتخذ هشام مجلسه مثلما كان يفعل كل يوم، والصمت يسود المكان، ويلقى عليه جوًا كئيبًا، يوحى بالكثير من الحيرة والقلق، وبعد فترة قصيرة أراد هشام أن يقطع حبل الصمت ليبدد ما غشى المجلس من كآبة ووحشة فصاح بكاتبه:

- هل أعطيت الصدقات لمستحقيها؟

- كلا يا سيدى الأمير. .

- والجند هل أخذوا مرتباتهم؟

- إذًا لم تفعلوا شيئًا. . ؟

- أجل يا مولاى. .

فقام هشام والقلق يسيطر عليه:

- ما معنى ذلك؟

فأجاب الكاتب مرتجفًا:

- وصلت رسالة من الخليفة الجديد أمرت بوقف كل شىء. .

وكانت لهذه الكلمات القليلة وقع الصاعقة على هشام، فانتابه مزيد من الخوف وتوجس شراً لكنه تمالك أعصابه وقال:

- متى وصلت رسالة الخليفة؟

- مساء الأمس..

هذا بداية الشر، والسطر الأول من المأساة التى تنتظر هشام، هل تصدق شكوكه وتتأكد ظنونه وتصبح تلك الرؤيا البشعة فألاً سيئًا كما حدثته نفسه.

- ألم تصل رسائل أخرى؟

- كلا يا سيدى الأمير، ولكن..

فقاطعه متلهفًا:

- لكن ماذا؟؟

- فى ذيل الرسالة يقولون انتظروا أوامر أخرى. ودهم هشام حنق شديد، كان على وشك أن ينفجر، وتمنى أن يسحب سيفه وينقض على هؤلاء الرجال القائمين حوله، ويفصل رءوسهم عن أجسادهم، ويتملى بمنظر الدم المراق.. خواطر شيطانية حمراء كانت تحتل رأسه، وتحرضه على التدمير والقتل والانتقام الرهيب، لكن يده تبدو وكأنها شلاء والناس من حوله جامدون متبلدون لا يحسون بشىء وهو

بائس مسكين لا يدرى ماذا يفعل، وصرخ هشام فيهم صرخة أزعجتهم، وملأتهم بالخوف والدهشة :

- اذهبوا من هنا أيها التماثيل الصخرية . .

وتسابقوا إلى الباب كلٌ يريد أن ينجو بجلده، فالشرر يتطاير من عينى الأمير، ويمينه على مقبض السيف وجبينه ينضح بالعرق، ونظرات الجنون تطل من محجريه ولم يبقَ أحد غير عبد أسود، كان على شفتيه ابتسامة مرتجفة، وترك هشام سيفه وسحب سوطه وأهوى به على وجه العبد وهو يقول :

- ما الذى أبقاك يا عبد السوء؟؟ وتلوى العبد من الألم ولكنه تحامل على نفسه وقال :

- معذرة يا مولاى . . إنها رسالة من الخليفة . .

وشرد هشام بضع لحظات ثم غمغم :

- أنت العبد الأعجمى الذى رأيته .

فقال العبد وهو فى شبه انحناء :

- كلا يا مولاى . . بل خادمك الأمين . . لست أعجميًا ولكنى حبشى . .

- إلىَّ بالرسالة . .

وزاغت نظرات هشام وهو يقرأ السطور، وتداخلت

الكلمات واختلطت وبدت الرقعة أمامه وكأنها مصبوغة بلون أسود غير محدود المعالم، كلمة واحدة كانت واضحة وكأنها محفورة فى الرقعة (العزل) لقد حم للقضاء وعزل هشام وانتهى الأمر ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل ولى الأمر من بعده عمر ابن عبد العزيز الشاب ذو الخمسة وعشرين ربيعًا، والذى تتحدث بمحامده الناس، ويتغنى بسيرته العطرة الرائح والغادى، هل يريد الوليد بن عبد الملك الخليفة الجديد أن يقول للناس: لقد مزقت لكم حجب الظلام، وأطلعت لكم الفجر؟؟

ورفع هشام رأسه، ووجد العبد ما زال واقفًا أمامه، والابتسامة المرتجفة قد تحولت إلى ابتسامة ساخرة. . وصرخ مرة أخرى: اخرج أيها الوغد، وخرج العبد وتلفت هشام حواليه فلم يجد أحدًا، وهم أن ينادى زوجته لكنها فى قصرها، وفكر فى الجند. . كلا لم يعودوا جنوده. . والخدم. . إنهم تحت سمع وطاعة الوالى الجديد. . أصبح طائرًا بلا أجنحة. . ما الذى يبقيه هنا؟؟ هل ينتظر حتى يأتى موكب عمر بن عبد العزيز الوالى الجديد؟؟ أيظل هكذا حتى يأتى الجنود بأمر الخليفة ويقذفون به ذليلاً مقهورًا؟؟ لقد كان يتوقع هذه النهاية سوداء منذ سرت إليه الشائعات، لكن. . لكن هذا أمر فظيع. . وتحامل هشام على نفسه، واتجه صوب الباب، وأخذ يجر قدميه جرًا، مخافة أن يتخاذل ويهوى إلى

الأرض . . إلى التراب . . ومناظر البيوت والحوانيت والناس الذين يزحمون الطريق ترتج تحت بصره، ورأسه ثقيل يكاد يهبط به . . كل شيء فيه ثقيل حتى اختل توازنه .

وقبل أن يصل إلى بيته سمع مناديًا ينادى :

- يا أهل المدينة . . لقد أمر الخليفة بعزل هشام وتولية عمر ابن عبد العزيز .

يا أهل المدينة . . لقد أمر الخليفة بعزل هشام وتولية عمر بن عبد العزيز .

يا أهل المدينة . . إن الخليفة أمر بأن يقف هشام أمام دار مروان بن الحكم ليقتص منه كل من آذاه، شتمة بشتمة، ولعنة بلعنة، ولطمة بلطمة . .

وسقط قلب هشام، وكأن الدنيا كلها قد انقضت عليه . .

ليس الأمر عزلاً فحسب، بل سيقف فى ميدان عام مطاطئ الرأس، وسوف يمر عليه أهل المدينة صغيراً وكبيراً عظيمًا وحقيرًا ليقتصوا منه، ويأخذوا بثأرهم . . يا للمهزلة . . سوف يشرب من نفس الكأس التى سقاهم منها . . إن الموت أهون من كل ذلك، وما قيمة الحياة التى يحياها بعد ذلك حيث تورقها ذكرى الصفعات والشتائم والبصقات التى تلطخ جبينه؟

وأسرع هشام إلى بيته وهو فى عجلة من أمره، وفارقه

تعقله ورزانته وأصبح يتصرف كفتى أرعن يريد أن يهرب من مصيره ولا يواجه يوم الثأر يوم القصاص الرهيب، وقال وهو يتخبط هنا وهناك:

- هيا يا امرأة يجب أن نهرب حالاً.. أمر الخليفة بعزلى والاقتصاص منى.. وفتحت زوجته فاها دهشة، وأسقط فى يدها، وشل ذهنها عن التفكير، وأخذت تنظر إلى زوجها وهو يجمع حاجاته ويعد العدة للرحيل، دون أن يعرف لنفسه وجهة، ويريد أن ينطلق فى بطن الصحراء ولو أدى الأمر أن يموت جوعًا وعطشًا، أما هذا الموقف الرهيب فلن يتحمله، وصرخ هشام بزوجته الواقفة فى جمود وذهول: هيا أيتها البلهاء.. ماذا تنتظرين؟؟ وتحركت زوجته وأخذت تجمع ما تستطيع جمعه، وبعد ساعة كان كل شىء معدًا للرحيل. ودار هشام بنظراته الحزينة فى أرجاء القصر المهيب.. كان يودع الذكريات والأشياء والأيام التى مضت، وانتزع نفسه انتزاعًا من هذا الموقف الشديد، وهم أن يركب جواده، وفجأة وجد رهطًا من الجند يحيطونه وصاح قائدهم بصوت أجش:

- إلى أين..

- إلى حيث أشاء..

- كلا يا هشام يا ابن إسماعيل المخزومى أمر الخليفة بأن غدًا يوم القصاص..

- لكن . .

- لا كلام . . أوامر الخليفة يجب أن تطاع . . عد إلى قصرك . .

وفى الصباح كان هشام يقف متخاذلاً ذاهلاً أمام دار مروان ابن الحكم، والآلاف من سكان المدينة يمرون به ويردون إليه صفعة بصفعة ولعنة بلعنة، وعبد أسود يرفع صوته ثم يهوى عليه، وعلى فمه ابتسامة ساخرة نفس الكأس السوداء التى سقاها للناس كأس الظلم. لكن هل يقف الأمر عند هذا الحد؟؟ أين زين العابدين بن الحسين؟؟ أين أهل البيت ومواليهم. لا بد أنهم سوف يقتلونه، لطالما أذاقهم الهوان والعذاب . .

وانتصف النهار، ثم أسفر الأصيل، وعندئذ رأى الناس زين العابدين قد جاء وحوله جمع حافل من مواليه وأهل بيته، فأوجس هشام خيفة وخيل إليه أن الموت يدنو منه مع كل خطوة يخطوها زين العابدين، فلما كان أمامه، واستسلم هشام لليأس، وبلغ روحه الحلقوم، قال زين العابدين :

- السلام عليك يا هشام . .

ومد يده يصافحه، ويهز يده ويمسك بها، ومد هشام يده ثم أسلم نفسه إليه وخفض رأسه وبكى، وقال زين العابدين :

- إن كان لك حاجة فإنا نقضيها لك وإن كان عليك دين من ولايتك فإنا نساء دينك . .

فأجهش هشام بالبكاء . .

ثم مضى زين العابدين ، ومضى من خلفه أهله ومواليه ولم ينظر أحد منهم إلى وجه هشام فى شماتة أو يؤذه بكلمة ، وغمغم زين العابدين وهو يبتعد عنه :

- إنه معزول ، فليست له قوة ، ونحن نعلو ونستكبر عن إيذاء الضعفاء . .

وهكذا كف جميع الناس عن إيذائه بعد ذلك . .

آلاف الخواطر والأفكار والذكريات كانت تتوارد على ذهن هشام طوال هذه الفترة الرهيبة ، والشمس غابت أو كادت ، والميدان خلا من الناس ، وأصبح هشام وقصته وعهده مجرد ذكرى . . ذكرى تثير السخط والعبرة والرثاء ، وسمع هشام من خلفه صوت قائد الجند وهو يقول بصوت آمر يعلو من الانفعال أو الرحمة :

- الآن تستطيع أن تذهب حيث شئت . .

وجمد هشام فى مكانه لحظات ، ثم مشى ليأخذ زوجته ويمضى إلى حيث تقذف به الأقدار فى متاهات الألم والأحزان والذكريات المريرة . .

□□□

الفهرس